155

جائزة الشارقة للإبداع العربي

الإصدار الأول | الدورة 9 | 2005

الثاني في مجال الرواية

أدراج الطين





إسماعيل الرفاعي



أدراج الطين

رواية

اسماعيل الرفاعي

إصدارات دائرة الثقافة والإعلام، حكومة الشارقة 2006م

الطبعة الأولى 2006

الناشر: دائرة الثقافة والإعلام
حكومة الشارقة ـ دولة الإمارات العربية المتحدة
ص. ب: 5119 الشارقة
هاتف: 5671116 6 971+
برّاق: 5662126 6 971+
بريد اليكتروني: sdci@sdci.gov.ae

٨١٣.٠٣٩٥٦٥ اسماعيل الرفاعي
ا ر. ا ادراج الطين: رواية/ اسماعيل الرفاعي.- الشارقة: دائرة الثقافة والإعلام، ٢٠٠٦
١٢٤ص؛ ٢١.- جائزة الشارقة للابداع في مجال الرواية ٢٠٠٥
١- القصص العربية - سوريا أ- العنوان
ب- السلسلة

ISBN 9948-04-360-X

ISBN 9948-04-103-8

إهداء

إلى أمي

قالوا أنه احتشاء مفاجئ، وأنك أخطأت في حبة الدواء ليس إلا، وأخطأت في المكان ليس إلا، وأخطأت في الزمان ليس إلا، وأنهم انتظروا جثمانك على مفارق الطرق، وأنك تلعثمت في جملتك الأخيرة، وأن الموت أدركك في مدينة أخرى .. وأن وجهك كان مشرقاً وجبينك كان مشرقاً وأن دمعة انزلقت من عينك اليمنى على المغسل وأنك التزمت الصمت في أسبوعك الأخير.

(١)

أدراج الطفولة

حين تأتي الساعة التي تنزلق فيها إلى سراديب الموت... ماذا ستحمل سوى خيبتك المريرة وجسدك المنهك؟..

سيفعل بك الموت ما فعلته بك الحياة.. سيتفسخ جسدك شيئاً فشيئاً، ويلتهمك الدود الذي خزنته طوال تلك السنين.. وأية أشباح ستملأ ذاكرتك، حين تغادر حاملاً حقائبك الفارغة ومتاعك البالي؟..

.. وعلام ستعلق بصرك المطفأ وأنت تمسح بعينيك المغلقتين بيوت الحارة القديمة والعيون التي حملتك بين رموشها.. دون أن تقوى على التلويح لها بيديك المتهالكتين؟.

ستذكر كيف أغفى أيمن قرب جثته قبل أن يكمل صورة

غفار.. وترى عمتك فاطمة في أيامها الأخيرة وقد تكورت على نفسها كقطة ضئيلة متشحة بالسواد.. أمك في صورتها الأبدية كأرملة بائسة.

العلاقات العابرة، والعلاقات التي حفرت ندوبها عميقاً.. القراءات المسكّنة.. والكتابات المبعثرة لسيرة لم تكتمل... الحلم الذي كففت عنه.. والشعر الذي كفّ عنك.. الوهم الذي تلبسك.. والحقيقة التي أشحت عنها..

وأنت تضم حياتك إلى يوم مؤجّل، حتى يحين يومك على تخوم حياة مؤجلة.

* * *

ماذا تحمل من تذكار الطفولة؟.. صورة العائلة.. أرملتين وخمسة عشر يتيماً.. نهر الفرات.. أحزمة السباحة بكالوناتها المعدنية.. دارك المتداعية.. صوت أمك ممزوجاً برائحة المطر والأرض الرطبة.. حكايا الجارة ورعبك المتربص بالخاتمة.. العجوزين العانستين، والقدر الذي تختلط فيه كل أنواع الأطعمة المقدمة لهما.. غيابهما المفاجئ بعد بلوغهما المئة عام.. نصرة التي تركت ضفيرتها على الشاطئ.. جدتك المفجوعة وقبر عمتك المنبوش.. طقوس رمضان ومحاولات الصوم الفاشلة.. جارك المؤذن وجارتك الحلبية التي حاول اغتصابها وهو يقرأ عليها ما تيسر لطرد الجن الذي ركبها، والفضيحة التي أحدثها زوجها الحوّاج حين ثارت ثائرته في جامع (الوسط)

بعد صلاة المغرب وهو يسب ويشتم ذلك البلد بجميع مؤذنيه.

الرحمة على جارك المؤذن الذي اختنق صوته في أذان العشاء، وعلى جارتك الحلبية التي فرمت فرماً بعد ذلك بسنوات عديدة على يدي زوجها وأخيها بسكين الشرف المثلومة.

ماذا أيضاً أيها المتعطل الشارد؟.. عامك السادس، ويومك الأول في مدرسة (علي بن أبي طالب)، والمكافأة الأولى على قراءة جملة (علم بلادي مرفوع) دون أخطاء والتي فضّلت فيها حفنة التمر على علبة الألوان.. عصابة الديك الأحمر ومشاجرات العصي والأبله الذي فجّ رأسك بقطعة بلّور.

ثلاثون عاماً مضت.. ثلاثون عاماً تغيرت الدنيا، وتغير معها بابكم الخشبي المصفح بالتوتياء.. زالت معها غرفة (ضحى) العجوز التي كانت تبيع ثياباً مستعملة، وخرفت (غربة) زوجة عمك..

مدخل البلدة أيضاً قد تغيّر.. فها أنت ترى خلف نظارتك الطبية دوّاراً رخامياً لم يكتمل، وعارضة حديدية مكتوباً عليها (الميادين ترحب بكم)، وأخرى مرسوماً عليها

(قلعة الرحبة)

مشروع الفرنك توقف منذ زمن طويل

والجسر الحربي تداعى منذ زمن طويل

واختفت خالصة العروس الشاحبة البارعة الجمال التي تخطر إلى ذهنك كطيف مقدس وهي تزوركم كعادتها وفي يدها (لمبة كاز) تكامل بذلك صورتها كأميرة أساطير بائسة التزمت صمتاً أبدياً بعد أن رمى بها زوجها واقترن بامرأة أخرى.

وحين أتيت بعد ثلاثة عشر وليداً لأب عاش بعدها أربع سنوات أنفق خلالها ما كان يملك من مال، مخلفاً زوجتين في مقتبل الصبا وقبيلة من الأيتام.. لتنقذف أنت في دوامة من الفراغ والسأم محاولاً صياغة نفسك بين علب الألوان وأكداس الورق الفارغة.(حذامى) ابنة النجار التي كانت تهجم على الأطفال محاولة خنقهم توفيت، و(عامر) أصغر أولاد الخبازة قتل في ليلة عرسه، بفأس هشّم رأسه تماماً والقضية ضد مجهول وذلك المجهول يحفر بفأسه قبرك الذي ستنزلق إليه ذات يوم.

* * *

لا مناص، فلن تستطيع إيقاف تلك الأشباح وهي تسترد ملامحها من قاع الذاكرة، ولاشيء يماثل ذلك الألق وتلك الدهشة الفاتنة على وجه نجاة ابنة الحلواني وهي تقف عارية لتجعلك تتأمل ردفيها الطفوليين حينما كنتما تنسلان إلى غرفة الساكن.

في تلك الأيام كان اكتشاف الأصابع والعيون.. وتعلم

السباحة، وإغواء الجارات بقطع البسكويت المجانية أو الراحة السائغة التي تفرغها من صينيتك المفروشة على باب بيتكم في أول تجارة خاسرة لك.

..... وإلى أن تلتقط أنفاسك الأولى أو تلفظ أنفاسك الأخيرة ستظل هذه الأشباح تموج في رأسك.. الحارة بجنّها وإنسها، والفرات بغيضه وفيضه.. وأنت تزفر أيامك لحظة بلحظة.. تمرّ بك (حويجة مناع) وهي تغرق شيئاً فشيئاً.. حويجة منّاع ملاذك القديم.. تظللك أشجار الغرب والزيزفون وطريق النهر المعبد بالعطر ودم التوت.

وتمخر رأسك (عبّارة حاج اغبين) بصوتها الهادر وهي تشق النهر وسط دهشة (الشّوايا) وسباب وشتائم ذلك الحاج العصبي المزاج والسليط اللسان ممتزجة مع ثغاء الدواب ولغط تجار المدينة..

إلا أن تلك الجلبة كانت مشبعة بالنداوة والألفة، تفوح منها رائحة اللبن والحليب والسمن العربي والخضراوات المقطوفة للتو.

تلك الأيام كنت تتنشق رائحة الأرض وأنت تشعر بالنسمة الباردة العالقة بعباءات القرى والتي يحملها الفلاحون أول الصباحات.. وكان الشتاء زخّة من المطر ومدفأة هادرة.. والصيف أمسيات أم محمد المضاءة بالحكايا.. وانسلال متكرر للسباحة في النهارات الحارّة.

تلك الأيام.. لم يكن الدم قد احتقن في عروقك بعد، ولم تتعطل حواسك بعد.

كان البيت كبيراً و غاصّاً بالزوار.. من القرويات و الجارات اللواتي يدخلن ويخرجن كل لحظة.. أم عدنان برائحة سجائرها.. وأم شاوي برائحة خبزها.. أم محمد برائحة عطرها.. وعمتك فاطمة برائحة الفرات.

بينما رائحة خاصة كانت تنبعث من القرويات.. مزيج من رائحة العرق مع رائحة الحليب واللبن، وتنبعث من الجهة الغربية للحارة رائحة عنابر السمن العربي تلك.. ومن الشمال تهب رائحة النهر بين لحظة وأخرى، في حين تختلط الروائح من الجهات الأخرى، وتنبعث من أمك رائحة خاصة طيبة وعميقة.. مزيج من رائحة الحناء وصابون الغار مع رائحة الأرض المبللة بالمطر.

وفي الصباح حين كانت الشمس تغمر نصف القضبان الحديدية لشبابيك الغرف المطلة على الحوش.. كانت تنبعث من غرفة أمل رائحة القهوة مع أغنية خافتة تتسرب من الراديو العملاق ذي الصندوق الخشبي والذي ما زال حتى هذه اللحظة في مكانه مغطى بالقماش المزخرف الذي نسجته أمك في ذلك الوقت.

العطور والروائح.. النسائم الندية والنسائم الجافة.. رائحة الأرض.. رائحة السماء.. لغط المنزل ولغط الحارة..

مجانينـهـا وحـكـمـاؤهـا.. مـآتمهـا وأفـراحـهـا.. كل ذلك الحنين الذي يعود بك لتذرفه دمعة دمعة أو حرفاً حرفاً وأنت مصاب بدوار الأمكنة واختلاط الذاكرة تتناوبك الأيام والوجوه.. لعلك تفلت من ثقل الزمن الذي يجثم على صدرك، أو لعلك تستعيد الشعور بالحياة عبر سيرة تعيد سردك بحروف تنفض عنها غبار السنين.

... وما زال عبد الهادي بوجهه المخبول وعينيه الحزينتين يذرع المدينة جيئة وذهابا، عجولاً ومتعثراً، يتسول السجائر ونظرات الشفقة من الآخرين.

والحكاية تقول إنه اغتصب طفلتين وصار إلى ما صار عليه

والحكاية تقول إنه لم يغتصب أحداً لكنها مشيئة الله، وقسوة الأب، و ضيق ذات اليد..

وما زال يرعى أمه المطلقة العجوز، وهو وحيدها وسندها في هذه الدنيا الجائرة..

وها أنت تقف مذهولاً وشاحباً حين يمر بك بعد ثلاثين عاماً بخطواته نفسها.. بوجهه المعذّب، وشعره الذي شاب تماماً.. وكأن الزمن قد تسمّر أمامك على تلك الهيئة زمناً مأزوماً ومشوهاً.

و(دندش) كعهده القديم يسير إلى جانب دراجته (الدوبل) المحملة بعدد كبير من علب التنك الفارغة والنفايات المتنوعة التي يلتقطها من هنا وهناك مرتدياً معطفاً رمادياً وعمامة قطنية،

وكعادته يلقي التحية بابتسامةٍ طيبةٍ ونظرةٍ واثقةٍ ثم يمضي، وتبقى أصوات الجلبة التي تصدرها خردواته بعد اختفائه.

وحالة السيد جميل أو (دندش) هكذا صيفاً شتاءً، بالثياب نفسها، والجلبة نفسها، والابتسامة نفسها.. عازباً أبدياً يفكر باختراعات جديدة بعد فشله في تصنيع الطائرة التي تسببت في انهيار عقله.

* * *

لم يحن بعد أوان سقوط تلك الحجارة التي قذفها ذلك الولد اليتيم في القصة التي روتها جارتك (أم محمد).. في إحدى أماسيها الطيبة، التي كانت تجمع فيها أولاد الحارة وتحكي لهم الحكايا...

ومن كان يا ما كان حتى سلة الزبيب يتكشف عالم خرافي.. عالم غامض يفرد فيه السحر أجنحته على البر والبحر..

..... وما زال رأس الحنفيش الذي كان يمص الدم من إصبع ست الحسن متدلياً من سقف الدار.. وما زال السيف يقطر الدم منذ دهور..

..... ومحمد ابن السلطان الذي ولد وفي صدره قفل ومفتاح، تدخل من خلاله الفقيرة الحسناء إلى عالم عجيب، فتسأل الصائغ.. لمن تصوغ؟. فيجيبها: لعروس ابن السلطان.. والحائك.. لمن تحوك؟.. لعروس ابن السلطان، فتخرج من قلبه لتدلف إلى نسيج روحه غافلة عن جذيلتها العالقة في داخله..

..... والخرزة الزرقاء التي دفنتها البنت الصغرى في كوخها القديم أفرعت (شجرة الأمنيات)، حين أعادها زوجها على ظهر حماره خارج قصر أختها التي طردتها بعد أن سفحت من يدها حفنة الشعير التي جمّعتها من بيوت النمل ولجارتك أم محمد وجه قمحيّ مدوّر.. وعينان سوداوان محددتان بالكحل العربي.. حديثها اليومي ممزوج بالسحر.. وحين كانت تجلس جلستها الأمومية وتأخذ بالحديث تأخذ الأشياء بالتلاشي.. فتعبر من حارتك إلى (حارة الزايد) و(حارة العلوة).. وتجتاز الفرات ومساحات الأشجار الرمادية، وتبدأ بالتهام الأفق كله والدخول إلى عوالم غامضة، تأخذ فيها حيناً دور الأخ الأصغر الذي نجح وحده باصطياد رأس الحنفيش بعد أن لجأ إلى جرح إصبعه وذرّ الملح عليه كي يتمكن من البقاء مستيقظاً حتى آخر الليل، أو دور الأمير الذي اختار الحسناء الميّتة بدلاً من الذهب والفضة والذي استطاع أن يعيد إليها الحياة بعد أن اقتلع سن الغول من قدمها الناعمة الأماسي الصغيرة تلك وليالي الشتاء الطويلة.. مدفأة الحطب وقصص الجن والسعالي.. الإنارة الخافتة للمبة الكاز.. سوق القصّابة وغارات القطط الدائمة.. كلب الحارة العملاق... أم شاوي وخبزها الطيب.. حليمة وحليبها الصافي.. أم عدنان وسيجارتها التي لا تفارق فمها.. وغدران الطين والماء التي لا تفارق حارتكم.

لعبة الخريطة (أو ضايع بالبلد ضايع) التي اكتشفت من خلالها تضاريس الحارات المجاورة..

وماذا أيضاً؟.. ماذا عن الخمس ليرات التي عثرتم عليها (كاملةً) أنت وأخوك مصطفى في كومة الحمّص المسلوق الساخنة المسفوحة في إحدى الخرائب والتي رفض أن يقاسمك إياها؟..

ماذا عن العصفور المعدني الذي خلب لبّك في اليوم الأول وحطم قلبك في اليوم الثاني.. وسيارة الأسلاك المعدنيّة التي صنعها لك محمد الكلاّش؟.. وماذا عن قصة (كوخ العم توم)؟، وميدالية قلب الحب التي أهدتك إياها (نضال) الصبية السمراء النحيلة التي كانت تسكن دمشق مع أهلها، وتأتي صيفاً لزيارة جدتها أم محمد؟.. ماذا عن غيرتك الشديدة من أسامة قريبها (الديري) الذي كان يرتدي بنطالاً جديداً من الجينز؟.. عن لحظات الصمت الطويلة والنظرات الخجولة حين كنت تجلس على عتبة الدكان المقابل لبيتكم وتجلس هي علي عتبة بيت جدها؟.. ماذا عن تعرقك الشديد وأنفاسك المتقطعة؟.. وعن عريشة العنب التي رقصت تحتها حتى ارتمت في حضنك من شدة التعب؟..

عن سباق الزحّافات الخشبية والكدمات التي خلّفتها على ركبتيك حتى هذه اللحظة؟.. ولعبة (الشكّام) التي كان (طارق الأعرج) يفوز بها على الدوام حين كان يضع قدمه المشلولة في قميصه ويأخذ بالقفز إلى محج الفريق الثاني دون أن يتمكن أحد من الإمساك به أو انتزاع قدمه من مكانها؟..

ماذا عن البيض العربي المدفون في تنكة الملح؟.. عن علبة

السـاردين الحـار التي التهمتها أنت ومصطفى فـي الحمّام؟..
والبيضة الوحيدة المخفوقة مع الماء التي تقاسمتها مع أختك
ليلى التي أكلها السرطان؟.

* * *

قبل أن ينطفئ فتيل قنديلكم القديم، تنامت طفولتك وأنت ترقب وجه أمك مابين ضوء خافت وحكاية تنساب من فمها كشـعـاع رقـيـق تسيـل معـه متـأمـلاً تـعـاريـج الضـوء عـلـى يديك المغمورتين بالثآليل..

كانت المدينة تغرب مع الشمس، وتدخل فـي سكينة معتمة، وهي تحرس نبضها بأضواء القناديل التي يحملها النـاس فـي تعليلاتهم.. ولم يكن ثمة شيء يدل على وجود المدينة غير تلك الأضواء المرتعشة التي تطوف فـي حاراتها.

المساءات المعتمة تلك بجوها السحري، كانت تمنحك فرصة لتأمل الأشياء ووقتاً كافياً لعد النجوم.. تلك العادة التي آمنت أنها تسببت فـي ظهور هذا العدد الكبير من الثآليل التي غطت يديك، وأصبحت تثير الضيق لك والاشمئزاز للآخرين.

ومـن محلـول الأسـيـد إلـى الحرق بـأعـقـاب السـجـائـر إلـى استئصال أكبر الثآليل كنت تنتقل من يأس إلـى آخر، حتـى تحول العالم إلى جدار كتيم مدبب.

ولن تنسى لهجة محمد الأحمد مدير المركز الثقافـي فـي ذلك الوقت وفمه المطوي، حين طلب منك أن ترفع يدك عن

طاولة مكتبه، وامتنع عن إعارتك أي كتاب من مكتبة المركز، خرجت وشعورٌ بالخجل والخزي ينتابك، وعدت أدراجك إلى البيت وأنت ترفع يديك وتتأملهما طوال الطريق، ثم انزويت في ركن غرفة (الساكن) المتهدم متحسساً ظاهر كفك وباطن روحك وأنت غارق في حزن شديد، ومتجاهلاً نداء أمك المتواصل وهي تطلب منك الحضور لتناول الطعام، حتى جاءت لتراك على تلك الحال، فضمتك إلى صدرها، وقبلت يديك.. ثم قالت لك: هيا معي سنذهب الآن إلى الحاجة نعيمة وهي بالتأكيد تستطيع أن تريحك من هذه الثآليل، هيا بني.. انهض.

... فنهضت وسرت إلى جانبها، ثم عبرتما السوق الغربي، وحارة بيت عمك كمال، واتجهتما إلى منطقة (المساكن).

كانت الريح تسفح عباءة الحرير على وجهك المتلهف، فيختفي للحظات طريق الحاجة نعيمة الذي لم تطأه من قبل.. إلى أن توقفت أمك أمام باب خشبي نصف مفتوح، قرعته، وانتظرت بضع لحظات حتى تناهى إليها صوت الحاجة نعيمة..

وما تبقى من ملامحها في ذاكرتك هو الشبه الواضح بينها وبين الحاجة أم محمد رحمها الله وطريقتهما المتماثلة في الكلام.. وحين انحنت عليك وأمسكت يديك.. انساب صوتها عذباً كحكايا أم محمد.. إنها النجوم أليس كذلك..؟

نظرتَ إلى الثآليل.. كانت تبدو كنجوم ميتة قطفتها من سماء لياليك الصيفية التي كنت تقضيها على سطح الدار قبل

أن تغطّ في نومك، ولا تدري كيف ومتى تكاثرت هذه النجوم حتى غمرت كامل يديك. رفعتَ رأسك إلى وجهها.. كانت عيناها صافيتين وابتسامتها مشرقة، وتساءلت في سرك: ما الذي ستفعله هذه المرأة بهاتين اليدين العكرتين..؟

ـ مارأيك أن أخلصك نهائياً من هذه الثآليل.؟.. قالت ذلك وهي تتفحص وجهك وتبتسم..

وكأنها قد التقطت اللحظة التي بدأتَ فيها بالتساؤل.. غابت قليلاً ثم عادت ومعها حفنة من الشعير وحبة باذنجان، وحزمة من الضوء تشع من عينيها.

.. أمك بدأت حديثاً حميمياً مع امرأة لا تعرفها من قبل، لكن اتضح أنها تعرف ابنة عمها التي تسكن على بعد حارتين من بيتكم، وتلك المرأة تعرف أم عدنان، فهي تقربها من طرف أمها التي توفيت قبل أيام قليلة، والتي خلّف موتها قشعريرة دائمة ونوبات من الهياج، تأتي وتروح، حتى جفاها النوم، ولهذا السبب هي عند الحاجة نعيمة الآن.. وهكذا دواليك، إلى أن توصلوا إلى استرجاع ذكريات مشتركة بينهما..!

.. فيما بدأتَ تنظر إلى حبة الباذنجان وحفنة الشعير، وتتساءل عن طبيعة العلاقة المحتملة، بينهما وبين الثآليل، كما تساءلت من قبل عن العلاقة بين الثآليل وعدّ النجوم دون أن تتوصل كحالك دائماً إلى أية نتيجة حاسمة.

... المهم أن الحاجة نعيمة لم تكن مبالية بجميع الهواجس

التي راودتك، فقد جلست على الأرض وجرّتك باتجاهها، ثم أمسكت بيدك اليمنى وبدأت تغزّ كل ثألولة بحبة شعير، ثم تغرسها في حبة الباذنجان.. حبةً.. حبة، إلى أن انتهت من اليد الأولى، وانتقلت إلى اليد الثانية وهي تقرأ بعض الآيات الكريمة، وقد استغرق الأمر وقتاً طويلاً، وهكذا.. حتى انتهت من جميع الثآليل التي بلغ عددها مئة وثمانين ثألولة غمرت كامل يديك، كما غمرت حبات الشعير كامل الباذنجانة التي بدت وقتها كقنفذٍ منكمش.

.. الوخز الناعم واللذيذ الذي سرى في يديك، والحيرة التي بدت عليك وأنت تتأمل تلك الطريقة في العلاج، جعلتك تتماهى وذلك الطقس الغريب الذي مارسته الحاجة نعيمة، خصوصاً وهي تناول أمّك حبة الباذنجان المدببة وتقول لها: خذيها يا أم أحمد، وعلقيها في مكان مشمس، ثم انظري ساعتها كيف تبدأ الثآليل بالانطفاء مع ذبول حبة الباذنجان، وحين ترينها قد جفت، ستكون الثآليل قد زالت تماماً من يدي ابنك.. بإذن الله تعالى.

... ربما تكون هذه المرة هي الأولى التي تسمع فيها خفقان قلبك بهذا الوضوح، فقد انتابتك رغبة بالجري إلى البيت بسرعة كبيرة، وإخبار جميع أخوتك وأصحابك بحكاية الباذنجانة و المئة والثمانين حبةً من الشعير والنجوم المطفأة التي استحالت إلى بثور.

* * *

أعلى الباب المؤدي إلى (غرفة المونة)، وتحت أشعة الشمس الحارقة، تدلت حبة الباذنجان.. وكلما نظرت إليها، حولت بصرك إلى يديك، و كلما دخلت أمك إلى غرفة المونة رفعت بصرها وابتسمت.. على هذه الحال كنت تقضي نهارك منقلاً بصرك بين قشرة يديك وقشرة الباذنجانة، وعندما كانت حبة الباذنجان تذوب في سواد الليل، كانت حبات الشعير تلتمع تحت ضوء القمر، أو بفعل الضوء الشحيح لمصباح الكاز المعلق على المصطبة المطلة على حوش الدار.

.. سحابة.. سحابتان وتنقشع غيمة الترقب عن طفلٍ متعجل و بيت متداعٍ وأفعى تطلق صفيراً غريبا في غرفة العلية لا سبيل إلى إسكاته بالرغم من تلاوات (جارك المؤذن) المتكررة والمسح الدقيق لجميع شقوق وتجاويف الغرفة.. حتى غاب الصوت فجأةً بعد أن انقشع غطاء النايلون المثقوب الذي كان يغطي السقف الخشبي المنخور.

حين جفت الباذنجانة كانت آخر الثآليل قد زالت تماماً.... لا أحد يعلم كم من الزمن بقيت تلك الباذنجانة معلقة؟.. ومتى اختفت؟.. هل ابتلعتها ليلة مباركة... أم تلاشت كطفولتك التي تحاول استعادتها الآن من أنقاض كهولتك المبكرة؟.. وما من أحد يعلم متى تنتصب من جديد هناك أعلى الباب المؤدي إلى غرفة المونة؟.. ما من أحد.

* * *

تسرح ببصرك من نافذة غرفتك العلوية عابراً أسطح البيوت العتيقة وحبال الغسيل وزوايا الشوارع الطينية قبل أن تبتلعها حواف السواقي والأراضي المزروعة على امتداد الشاطئ... عائدا بذاكرتك إلى أثير تلك الصبية القروية التي تعرت أمامك بشكل مفاجئ، ثم ألقت بنفسها في المياه قاذفة في وجهك بابتسامة لعينة ظلت تؤرقك ليالي طويلة وهي تمتثل أمام عينيك المغمضتين تهتز على بشرتها ظلال آلاف الأوراق العائمة في فضاء قريتها الدافئ لتلتهم المشهد بروية.. وأنت تتصبب عرقاً تحت لحافك البارد.

.. فيما بعد راودتك تلك الصبية عن نفسها في إحدى زياراتها مع أهلها إلى البلدة.. حينها كان البيت ضاجاً وصاخباً، وكنت تتلصص إليها من خلف زجاج نافذتك، لكنك لا تبصر إلا ابتسامتها اللعينة.. ثم رأيتها تصعد عتبات الدرج المفضية إليك، واقتحمت شرودك بغواية أكثر جرأة من تعريها ذلك اليوم حين اقتربت وبدأت تعبث بك إلى أن انتهت منك.. وهي تستعرض أوجه الشبه بينك وبين أحد الصبية في قريتها، وأنت لابثٌ دون حراك.. مصعوقا ومدحوراً.. وبعد أن خرجتْ، هربتَ إلى الحارة قافزاً مثل كلبٍ مذعور من ناصية السطح على كومة من أكياس القمح المكدسة على باب داركم.

عدا تلك القفزة التي تشبه الطيران من أعلى شلال إلى نهر هادر.. كنت تستذكر تلك الأقواس الشاسعة من الفضاءات، ما بين أسطح البيوت أو جدران الخرائب وما بين أكياس الحنطة

وأنت تعب الهواء بأكمله، كأنك تحلّق لأزمان طويلة في تلك اللحظات الخاطفة... أيام كانت سرقة حزمات الحطب من أمام منزل أم شاوي، وإضرام النار فيها مغامرة كبرى.

وبعد أن زالت البثور من يديك، أصبح العالم أكثر صفاءً وظل أصحابك يتحادثون بحكاية الباذنجانة فترة طويلة، وأدمنوا عادة عدّ النجوم.. ليتذوقوا بدورهم وخز حبات الشعير على يد الحاجة نعيمة.. لكن دون جدوى.

وحده طارق الأعرج لم يستسلم لتلك العادة، ووحده الذي كان يجلس مراقباً الألعاب العنيفة التي تتطلب الحركة السريعة والجري.. فغالبا ما كان يجلس على غصن الشجرة الكبير المرمي على مقربة من منزل (الحياويات) مقابل منجرة فاضل، وينظر بحزن إلى تلك الألعاب الشيطانية، دون أن يأبه به أحد.. في حين يتهلل وجهه فرحاً عندما يحين الوقت للعبة (الشكام) التي لا مجال فيها للتغلب عليه بأية طريقة كانت، بالإضافة إلى براعته الفائقة بلعبة (الدحل) والتي ما إن يبتدئها حتى يمتلئ الجورب الذي يحمله بالمئات من تلك الكرات الملونة.. (أول.. تالي.. كنجي) كانت الأصوات تتعالى لحجز الأدوار.. وكان طارق هو الفائز دائماً.. وعلى كل حال فقد كان المجد الذي يحصده طارق الأعرج محصوراً بتلك اللعبتين اللتين غالباً ما تنتهيان بمرارة حين يثأر منه أحد الخاسرين بالسخرية من قدمه المشلولة التي ينقلها بيديه مثل عصا هزيلة.

لكنه الآن وبعد مضي كل هذه السنين اختار مهنة تناسبه تماماً، وقد استطاع أن يبرع فيها.. تماماً كبراعته في لعبة الشكام.. إذ احترف مهنة التصوير الضوئي، واختار مكاناً ملائماً لدكانه في ساحة السّرايا، بالقرب من أمانة السجل المدني التي يتوافد إليها القرويون وسكان البلدة بأعداد كبيرة.. لكنه ما يزال على حاله.. صاحب القد الضئيل والبنية الناعمة، والغرّة التي اشقرّت من أشعة الشمس ينسفها يميناً وشمالا طوال الوقت.

على عكس (آصف العلوة) بجثته الضخمة وصوته الخنثوي الناعم ووجهه القبيح الذي كان يميل إلى ألعاب العنف منذ صغره بالرغم من جبنه الملحوظ في حلبات القتال الحقيقية، فقد تحول إلى حمال محترف وتزوّج وطلّق مرتين متتاليتين بعد أن خلّف جوقة من المشردين.. والحقيقة أن السمة الأصيلة في طباع آصف هي طيبته الكبيرة وقلبه الرقيق.. فقد كان أبله بحق بهيئة عملاق وقلب طفل ووجه مسخ.

* * *

ما الذي تحدق به؟.. في أي الوجوه الغائبة تتفرس؟.. وبأي حجر سترتطم هذه المرة؟

لن تفكّ أغلالك هذه الأصوات الضاجّة داخلك.. ولن تنجح حكايا أم محمد المستعادة بحملك مرة أخرى إلى سلات الزبيب..

.. غير أنها خيوط حياتك المتشابكة تنسلّ عنوة.. مشبعة برائحة الطفولة وخبز أم شاوي الحار الذي كانت توزعه بسخاء.

.. غير أنها حكايتك تنثر ظلالها هنا وهناك.. لعلّك تقبض على جمرة الرماد الأخيرة قبل أن يذوي ما تبقى من أيامك العالقة في تقويم العمر.

لعلك.. تعيد إلى نصرة ما سرقت منها المدينة وتضع إكليلاً من الكلمات على جثتها الطافية على النهر، أو لعلك تجيب على أسئلتك القديمة.. حين كان الموت تجربة فاشلة في الحب.. وحين تساءلت في سرك ضائعاً بين الشك واليقين:

ـ أحقٌّ أن حورية النهر التي تنسل إلى المدينة عبر أغصان الليل تاركة على نوافذ العشاق زنابق الماء.. هي نصرة؟.. نصرة التي تركت ضفيرتها على الشاطئ، وظلت تلوح لأختها الصغرى إلى أن ابتلع الماء أطراف أصابعها، وغابت في النهر مع شمس المغيب؟..

ونصرة كانت في الثامنة عشر من عمرها.. بيضاء شاحبة بشعر حريري مشرب بالذهب، غائبة على الدوام، وهي ابنة الآخرة كما يقال.. تسكن في قلبها.. وتتحدث في روحها.. وحين جمعتها الخفقة بحبيبها، ألقت ثوبها الأرضي، واكتست بثياب الوجد.. تغفو كل ليلة وهي تتنفس عبير الكلمات في الرسائل السرية التي تتسلمها، وتصمت في رسائلها.. ليس إلا

صوت قلبها يسيل على أوراقها المعطرة.. وليست إلا نظرات خاطفة يتبادلانها ولقاءات مرتبكة يسرقانها على غفلة من أعين الجميع و في أوقات متباعدة..

كان حباً سريا تحول إلى كارثة حين أفصحا عنه، فقد أرتجت الأبواب، وأغلقت عليهما المنافذ جميعها.

هو لم يترك سبيلاً إلى إقناع أبيه بالتقدم إليها فانتهى إلى جرعة السم القاتلة.

وهي لم تستطع التصديق بأن صوت النواح المرير وأصداء الندب الداوية كانت بكاءً على جثة حبيبها المسجى في سريره قرب وردتين لم تذبلا بعد، فانتهت إلى نهر الفرات، لتلقي نظرة أخيرة على أختها، وهي تحمل بيديها الجديلة المضفورة بدمعة لم تجف بعد.

... ومن يذكر تلك الجثتين وهما تطوفان المدينة جنباً إلى جنب، يذكر جيداً كيف ندبتهما المدينة بأسرها وهي تشيع عاشقين اتحدا على سرير الموت بعد أن حرما سرير الحب..

هي ما زالت تضم إلى صدرها رسالته الأخيرة.. وأنت مازلت تسطر:

(نصرة).. حورية النهر التي تركت ضفيرتها على الشاطئ، والتي تتسلل إلى المدينة عبر أغصان الليل لتترك على نوافذ العشاق زنابق الماء ورسائل عاشق لم تكتمل بعد.

ذلك المساء أطفأت خالصة مصباحها وبكت بمرارة.. وعند مطلع الفجر كانت تتلوى على ضفة النهر في المكان الذي رحلت نصرة منه، ممرغة بالدموع.. قرب أثرٍ رطب لقدمين حافيتين.

.. ترى هل كانت خالصة هي الطيف الحي لنصرة.. تحمل مصباحها المطفأ.. كأنما تحمل قلبها.. و تطوف المدينة كأثيرٍ إلهي.. مضاءة بشحوبها، وغافلة عن الأرض؟.

ونصرة تركت قلبها معلّقاً بين خفقتين.. أودعت دمعتيها الفرات، وفاضت على الأرض.

* * *

وبعد.. ما الذي تحاول أن تفعله بتلك الغصة الناشبة بالحلق وذلك الزمن الماثل في الذاكرة .. مستطيلات ودوائر.. وخرائب تعيد التنقيب فيها لتعثر من جديد على لقى طفولتك النادرة؟.. حمائم على السطح تصنع فضاءها وفضاءك، وقطط على الجدران.. دجاج وديوك في الزريبة وماشية نفقت بأعداد كبيرة في خان أبو غروب..

قماش ضائع في دفاتر الديون، وذهب يستبدل بأكياس الحب والحنطة، وساعات تسمرت عقاربها على أزمان قديمة.. أصوات تتعالى مع الفجر لبائعات اللبن والحليب..

بقالية الشرابي، وطعم السكاكر التي تذوب في الفم..

الـرسـائـل المدفـونـة فـي الأضـلـع، وقـلـوب الحب المرسـومـة بالطباشير الملونة على جدران الطين.

.. على كل حال ما هو إلا هواء قديم يملأ رئتيك تحاول أن تزفره نفسا نفساً، وأنت تلاحق وميض الضوء لوجوه طواها الزمن.

أجراس معلقة على أعناق الماشية.. وكلاب تتلقف الحجارة الضـالـة.. وغـروبٌ عصـيٌّ عـلـى الـعـتـمـة.. مشـهـد عـلـى الـضـفـة المقابلة.

حشود وصراخ وندب ضار، وحسناء ببطن منتفخ، وغروب عصـيٌّ عـلـى الـعـتـمـة.. مصـبـاحٍ مطـفـأ وامـرأة تشتعل حـزنـاً - مشهد على ضفة المدينة.

في تلك الآونة كنت تحلم كل ليلة بأنك مكور في تنور.. تدور وتدور وخلفك قطط مسعورة.. وتستيقظ كل صباح مذعوراً ومنهكا تنفض عنك الرماد.. تمسح آثار الحروق وتنهض.

... عـلـى كـل حـال مـا هـي إلا كـوابـيـس تحجب عـنـك الصـبـاحـات.. وأحـلام تـقـصـيك عـن الأرض ومـا هـو إلا حبر يفيض على الأمكنة..

* * *

أربعة دكاكين كانت تتصدر واجهة المنزل.. محل القماش الذي أغلق منذ وفاة والدك.. محل الساعاتي جورج ومحل

محمد أمين لتصليح المسجلات والراديوات ومنجرة علي الحريب التي اقتطعت من المنزل مع جزء من غرفة الساكن، وأُجِرت بعد وفاة المرحوم لسد الحاجة.. وقد خلقت تلك المنجرة حالة من التوتر الدائم منذ ذلك الزمن وحتى هذه اللحظة.. وتسبب ضجيج آلاتها واهتزازها الدائم بتصدع الجدران والأرواح.

ما تبقى من غرفة الساكن كان يتسع للخردوات و(بدنات) الدراجات الهوائية التي كان مصطفى مولعاً بها، بالإضافة إلى ركن التنور الماثل في كتف الغرفة المكشوف على الفضاء، ونافذة طولانية تطل على بستان الخضر، وتشرف على مستطيل منخفض من الأرض يفصل بينكم وبين بستان الحاج خضر، أطلقت فيه مجموعة من الدجاج والأرانب.

وبعد وفاة المرحوم وحدت الأيام بين الأرملتين، وجمعهما المصاب تحت سقف الفقر..

في البدء تم جرد الموجودات في المنزل واقتسامها بالقرعة.. الإبريق النحاسي من نصيب أم محمود والبلاستيكي من نصيب أم أحمد.. هذه الغرفة لكم وتلك لهم.. وسائد الريش.. ووسائد القش الكراسي الخشبية والمعدنية.. هذا السطح وذاك.. هذه غرفة أحمد وتلك غرفة أمل.. وهكذا حتى ضاعت الحسبة مع الأيام واختلطت الممالك.. ومنجرة الحاج علي الحريب ما زالت حتى هذه اللحظة تهز البيت هزاً وتصرّ في عروقه منذ مطلع الفجر حتى أواخر الليل.

كان المنزل عامراً على الدوام.. أصدقاء العائلة القرويون مع اللبن و الحليب.. الجارات وأرتال الأطفال.. أم أحمد الشتات وأبناؤها الخرس.. أولاد الحارة وبناتها.. ولم يكن باب الدار المغطى بالتوتياء يغلق ليل نهار، كانت الحارة أبواباً مفتوحة للجميع، يسترهم غطاء واحد وتجمعهم الدنيا على السراء والضراء..

ولم يبدد تلك الطمأنينة إلا صوت طلق ناري أيقظك من نومك مرعوباً، وكانت أمك غافية إلى جوارك على سطح الدار في إحدى الليالي الصيفية البعيدة.. استيقظت بدورها على ذلك الصوت مع إحساس بوخز حارق يخترق ظهرها.. ابني.. ثم.. صرخت بعد أن تلمست ظهرها.. لقد أصبت.

صرخة علت من داخلك ومزقت أحشاءك للمرة الأولى.. لذت بها.. أمي ما بك؟.. وضعت يدها المبللة بالدم على وجهك.. نهضت كالمصعوق.. كان أخوتك يلعبون في الحارة، وكان أخوك الأكبر ساهراً مع أصحابه في أحد المقاهي..

لم تذرف دمعة من أحد.. كانت الصدمة أكبر من الدموع.. وحدك لم تتوقف عن البكاء على امتداد الطريق المؤدي إلى المشفى الوطني في دير الزور.. وكانت (سحيلة) سيارة جاركم أبو محمد الناصر رحمه الله تجر نفسها جراً في طريق لا ينتهي..

في المشفى التي تفوح منها رائحة المرض والعفونة.. كانت

أمك غائبة عن الوعي تتأرجح بين الحياة والموت.. والنتيجة التي خلص إليها الأطباء بعد معاينة صور الأشعة والفحوص السريرية المكثفة.. أن ثمة معجزة في ما يحدث.. فالرصاصة اخترقت الظهر على بعد مليمترات من العمود الفقري، ومرت من جوار الكبد دون أن تمسه، واستقرت في داخلها دون أن تسبب أذى لأي خلية من الخلايا.. كما أنهم رأوا أن من الأفضل أن تترك الرصاصة في مكانها، فقد يتسبب العمل على إخراجها بأذى أكبر بكثير مما لو بقيت..

تنفس الجميع الصعداء، وتهللت وجوههم بالفرح وبإشراق إلهي حين تحلقوا حول الأم الغارقة في سباتها.. في صباح اليوم التالي.. فتحت عينيها وقد استعاد وجهها بشرته الخمرية..

مر المصاب على هذه المرأة الطيبة، ومرت السنين وما تزال الرصاصة في مكانها.. وما يزال في صدرها ذلك القلب المبتل بالطفولة، وفي عينيها تلك النظرة المبتلة بالدموع، ولم تستطع الأيام أن تغيّر من طباعها، أو تنال من ابتسامتها..

وكان الجميع على يقين بأن ما حدث لها حدث لأنها كانت نبية من سلالة الله الصالحة التي يرعاها في الدنيا والآخرة.

قبل أيام من ذلك الحادث دوّى في المنزل صوت طلق ناري قبل حلول المساء.. ذهل الجميع وتسمروا في أماكنهم دون أن يعرفوا ما الذي حدث، إلى أن قرع محمد الخضر باب الدار

ودخل مبتسماً.. قائلاً: هل عرفتم ما حدث؟.. ثم استأذن في الدخول حيث النافذة المطلة على بستانهم، وخفض رأسه إلى الأسفل قائلاً: انظروا.. كانت ثمة أفعى عملاقة تصل إلى عدة أمتار وقد تفجر رأسها وتكومت أسفل الشباك.. ثم قال: الحمد لله أني لمحتها في اللحظات الأخيرة.. كانت على وشك الوصول إلى النافذة.. لقد كانت على بعد سنتيمترات فقط.. والحمد لله أن بندقية الصيد كانت معي.. وإلا...

لقد كان مشهداً مرعباً.. فقد كان واضحاً أن تلك الأفعى قادرة بكل بساطة على ابتلاع طفل بأكمله.

في تلك الليلة يبدو أن أحداً لم يتمكن من النوم مطلقاً، فقد ظلت صورة الأفعى العملاقة ماثلة أمام الجميع، وما إن ينجح أحد في إغماض عينيه حتى تخرج له تلك الصورة المرعبة من أغوار العتمة، تبدل الهلوسات من أشكال تسللها، وتضيف سنتيمترات أخرى إلى طولها.

* * *

في كل منزل ثمة حكاية عن أفعى.. وفي كل حارة ثمة امرأة تجمع الأطفال على موائد الحكايا وممالك الجن والسعالي.. يوم كان للحجر والنهر والطير لغة يفهمها الجميع..

وعلى كل نهر ثمة عاشقة خلعت عمرها على شاطئه.. وعاشق خلع قلبه على ذكراها..

وفي كل حكاية ثمة عبارات لا يمكن البوح بها وثمة تفاصيل

لا يمكن الإفصاح عنها.

فما إن تقترب الكلمة من كلامها، حتى يتوارى المعنى.. وما إن يقترب الراوي من روايته.. حتى يحجبها عن الجميع.. كأنها حكمة الهباء.. أن يسرد الراوي الحكاية التي لا يريد، وأن يستأصل الكلمات الشائكة من الصفحات السائغة.. كمن يتغنى بالحياة على مسامع الموتى..

.. إنها سيرة الطين ليس إلا.

***

إذن.. هي رائحة الزيزفون ووهج الشمس الحارقة ورهافة الضوء الذي تسفحه والظلال التي تصنعها.. إذن هي رائحة المدينة التي تتنسمها الأرواح التي تنفض غطاء الموت عن أجسادها.. وهي أيضاً ضحكة (أحمد الجمول) التي تهز أشجار الغرب في أحراش الفرات.. يوم كان له نفسٌ يتنفسه في الحياة.. ويوم كان شعره الأسود الكثيف يلتمع في الهواء.. وعيناه الواسعتان تبرقان أمام النوافذ التي تنفرج عنها ابتسامات خائفة.. حين كان ثمة بيت طيني صغير على حافة الجرف المطل على نهر الفرات.. يتردد أمامه بحذر شديد، فتتبدل ألوانه كلما أحس بانفراج خفيف في بابه أو لمح سراب وجه عذب يطل من خلاله.. في حين تستند (هدى) إلى جوار النافذة متلذذة بحركته الحائرة بانتظار فرصة سانحة كي تخرج إليه ليتبادلا بضع كلمات مرتبكة وحروف مدسوسة في ورق مدعوك.

وكان أحمد عاشقاً بامتياز ترك قلبه خافقاً على العديد من النوافذ.. أمل في حارة الضويحي.. سعاد في الحارة الغربية وأخرى في الحارة الشرقية.. وهكذا كان مخلصاً وعادلا في علاقاته كلها.

في تلك الأيام وفي الحدود المتاحة لعلاقات ذلك العمر.. كان الحصول على قبلة يعد كنزاً كبيراً من كنوز العلاقة النادرة يظل مذاقها عالقاً في الفم لأشهر طويلة.. وكانت ابتسامة واحدة تكفي لإشعال الرأس وإشاعة الخدر في كامل الجسد.. وإذا ما تطور إلى ملامسات تصل إلى مساحات نافرة من الجسد فإن الأمر سيكون قد حقق ذروة الانتشاء.. وقد يستغرق الوقت للحصول على تلك الابتسامة النادرة أو اللمحة الخاطفة ساعات طويلة من الطواف حول المنازل وربما أياماً، غير أن طريق المدرسة كان غالباً ما يمنح العشاق تلك الفرصة التي تكفي لقضاء يوم دراسي ممتلئ بالنشاط، أو يوم فاتر إذا خانهم الحظ بسبب بضع ثوانٍ أو دقائق على مفترق الطرق.. وغالباً ما تنشأ علاقات تمتد لزمن طويل بين الطلاب الذاهبين أو العائدين من مدارسهم دون أن يعرف أحد الطرفين اسم الآخر..

كانوا يعرفون المرحلة التي ينتمون إليها، أو الصف الذي يدرسونه عن طريق الشرائط التي يعلقونها على أكتافهم أو اللون الخاص لزيهم المدرسي.

استعداد أحمد الدائم للدخول في جولات عاطفية جديدة..

وتأنقه الشديد.. وابتسامته الخلابة التي تسطع في الحارات في جميع الأوقات وفي مختلف حالات الطقس المتبدلة.. صيفاً أو شتاء تحت أشعة الشمس الحارقة.. أو تحت وابل المطر الغزير.. كل ذلك أهّل أحمد ليكون دونجواناً ينتقل من فم إلى آخر على الألسنة العذبة للصبايا الحالمات..

والصندوق الخشبي الذي أوصده قبل ذهابه إلى خدمته العسكرية كان ممتلئاً بالرسائل المضمخة بالعطور المختلفة.. والمناديل المنقوشة بحروف متعددة.. في ذلك المساء كتب أحمد نسخاً عديدة من رسالة وداعية، ووزعها على صباياه على امتداد عدة جولات.. ثم انطلق إلى دمشق وفي روحه حنين جائش إلى النوافذ التي تبقى مضاءة حتى مطلع الفجر، وفي عينيه توق إلى تلك المدينة الساحرة وإلى نسائها الناعمات.. ولهجتهن الساحرة.

كثيراً ما كانت دمشق تراود أحمد.. وتغويه عبر صورتها التي تكونت لديه من أحاديث الأصدقاء.. وهاهو يقذف بدفاتر المدرسة التي لم يستطع الاستمرار فيها، ويذهب لاجتياز عقبة الخدمة العسكرية، ليشق طريقه في الحياة بعد ذلك..

بعد ذلك انقطعت أخبار أحمد عن الجميع لأشهر عديدة، ولم يتلق أحد من أصدقائه خلالها أية رسالة منه.. و لم تسمع إحدى حبيباته وقع خطواته تحت نافذتها، إلى أن تدبرن أمورهن بعشاق جدد.. وأشرعن أرواحهن على قلوب جديدة.

وبعد مضي ما يقارب السنة تناقلت البلدة خبر عودة أحمد وفي يده اليسرى يلتمع خاتم فضي، وإلى جواره عروس دمشقية بالغة الحسن.. هكذا جن قلبه.. وتزوج دون علم أحد.. وهكذا جاء بها كي يقدمها لأهله كأمر واقع.

تحت سماء زرقاء صافية وفي جو ربيعي رائق كان الصراع محتدماً بين أحمد وأهله الذين رفضوا تقبل هذا الأمر جملة وتفصيلاً، وكانت أمه التي أصيبت بانهيار كبير.. قد دخلت في حالة هستيرية غريبة تكرر دون انقطاع وعلى مسامع الجميع: (أخبروه أن يطلقها وإلا تسبب بموتي..)، حتى خفت صوتها وأوشك على الانطفاء تماماً، ولم يجد أحمد سبيلاً إلى إنقاذ أمه إلا الانصياع إلى رغبتها..

حزم أحمد حقيبة عروسه الغريبة.. قادها إلى حافلة متجهة إلى دمشق.. أجلسها في مقعدها.. وبكى بمرارة وهو يراقب الباص يمضي بها ..

شعر بقشعريرة غريبة وخدرٍ في يديه.. دخل المنزل.. أخبر أهله بأنه سيرسل وراءها ورقة الطلاق.. جلس على الدرج.. دفن رأسه بين ركبتيه.. صار يتصبب عرقاً.. أجهش طويلاً.. ثم صمت.. ولم يخرج من صمته حتى هذه اللحظة.. فقد أنزلوه ميتاً.. كانت نوبة قلبية حادة قد اجتاحت صدره وأسكتته.

صندوق الرسائل على حاله.. أمه توفيت بعد أيام من وفاته.. وزوجته تلقت ورقة الطلاق ممهورة بحياته كلها.

تحت سماء زرقاء صافية.. وفي جو ربيعي رائق.. ثمة امرأة دمشقية تتردد في مواعيد محددة على قبر محشور بين القبور تذرف ما استطاعت من دموعها وتمضي.

* * *

وكانت الخطوات التي تجر نفسها جراً في المساءات أمام عينيك.. وكانت الأضواء التي بدأت تنتشر في المدينة لتغير عادات النوم الباكر، وتبتلع ضوء لمبات الكاز الشحيح وضوء الفوانيس المعلقة على زوايا الطرق.. الحقائب المدرسية بدل أكياس الخيش.. ومسلسلات دليلة والزيبق وأسعد الوراق بدل حكايات أم محمد..

غير أن المدينة ما تزال على حالها.. شوارعها الترابية.. شبابيكها الخشبية المهترئة.. الأبواب المصفحة بالتوتياء والمنقوشة بالمسامير.. حبال الغسيل بالثياب الكالحة، والحارات العامرة بالنساء اللواتي أدمن عادة التشمس.. صلوات التهجد.. الشتائم المتواصلة..

كانت الصباحات تتقاطر.. كالحليب على أرغفة الخبز.. والبيوت تذوب في المساءات.. والأحاديث لا تهدأ.. من فلان إلى زوجته، ومنها إلى جارتها، ومن الحارة إلى أقصى منزل في البلدة.. والأيام تطوى حكاية إثر حكاية، لترسم المدينة سيرتها..

وما ترسخ في الذهن عن (الحياويات) بدده الزمن، فقد نسج الصبية عن هاتين العجوزين التوأمين قصصاً تنسبهما

إلى الجن، أو عن شكوك حول علاقات محتملة لهما مع أرواح غير مرئية تطوف في الحارة، وتأتي لزيارة الأطفال في نومهم، وعن قِدرهما الغريب الذي تختلط فيه جميع الأطعمة التي يقدمها الجيران لهما.

كان السواد يلف قامتيهما المفرطتين في القصر.. صامتتان على الدوام، ونادراً ما كان بابهما يفتح لغير تلقي (الصُّبب).. وكان جميع الأطفال يتعاملون معهما بريبة وحذر.. وبقيتا معزولتين داخل غرفتهما المتداعية يتآكلهما الزمن إلى أن اختفتا عن الحارة ذات ليلة دون أثر يذكر لهما اللهم إلا القدر الذي كانت تفوح منه رائحة أطعمة فاسدة.

لأعوام طويلة ظلّت خربة ومتهدمة وعلى وشك الانهيار تلك الغرفة الخانقة، وقد طمر التراب والأوساخ القدر الكبير الصدئ الذي يتوسطها.. وكان ثمة أصوات ولغط غريب يتعالى من جوفها في الليالي الصقيعية الحالكة.

الخرائب تتسع يوماً إثر يوم كلما فارق أحد المتوحدين الحياة، أو انتقل أحد الجيران إلى سكن جديد.. منزل ضحى أو (ضحيّة) كما كان يطلق عليها.. وموتها الحزين كحياتها.. وضحيّة - رحمها الله - وجدت غائصة في كوم الثياب المستعملة التي كانت تبيعها دون أن يفطن إليها أحد إلا بعد مرور أيام.. وقد شيعت، ودفنت دون أن يستطيع أحد الجيران العثور على عناوين أحد من أولادها أو من أقاربها.. لكن نساء الحارة بكينها وندبن عليها بحرقة وأسى سبعة أيام متواصلة.. وقد

كانت أم شاوي من أكثر الجارات حزناً عليها، فمنزلها مواجه لغرفة ضحى، وربما قرأت في موتها المصير نفسه الذي ينتظرها، أن تموت هكذا وحيدة ومعزولة دون أن يلتفت إليها أحد من أولادها.. وقد بدأت معالم مصيرها تتحقق منذ أن تزوج ابنها البكر بعد خروجه من السجن، واحتل بيتها هو وزوجته التي كانت تمنع عنها الطعام إلا الفتات الذي كانا يخلفانه.. فقد كانا يجلسان إلى طعامهما.. وتنزوي أم شاوي في الغرفة تراقب ابنها الذي أطعمته من روحها وجسدها وهو يتغامز ويشير ساخراً إليها، فتنفجر زوجته بالضحك.

أيام وأيام أيتها الحارة التي جمعت في أحضانها الناس الطيبين، والناس الذين خانوا العيش والملح..

لكنها الحياة تفصح هكذا عن نفسها.. فيخضر شجر العليق ويذوي الياسمين..

لكنها رائحة التوت والزيزفون، ومشهد الحور المعطر، والقارب المعدني الذي يحمل ما يحمل في ذهابه وإيابه على ضفة الفرات كي يغسل في هبوبه، القلوب والأرواح ويمسح بنداوته أطراف الذاكرة المثقلة.

غدران الحارة.. غيمتها الماطرة.. شمسها القائظة.. أبوابها القديمة.. نوافذها المدهونة بالأزرق الذي بخرته الشمس أو بالأخضر الداكن، ومعالمها المرسومة بالطين والماء والنفس الحي.

المواقد المتنقلة لأصحاب الدكاكين، والخشب المتجمر في التنك المخرّم.. الأحذية البلاستيكية المحمّلة بكتل الطين.. والأجساد الخفيفة التي تكاد لا تلامس الأرض.. الطائرات الورقية، ووشائع الخيطان الطويلة، والأصابع النحيلة التي تمشط الهواء.

* * *

كانت المدينة بضعة بيوت طينية وشوارع ترابية وسوق متفرع مسقوف بالتوتياء، وبضعة قناديل خافتة تجوب الشوارع في الليالي الحالكة.. أو تتهادى في الغرف الحميمة على حديث عابر أو قصة من قصص ألف ليلة وليلة.

وكانت جدتك (اشنوف) قد أوشكت في تلك الأيام أن تخلع ثوبها الأسود، وتغادر حدادها الأبدي، حين باغتها ذلك الفجر الذي استيقظت فيه على إحساس مبهم باقتراب كارثة ستضاف إلى تقويم المصائب التي حلت بها..

شعرت بأجنحة سوداء تخفق في أرجاء البيت وامتلأ أنفها برائحة قوية كانت قد عرفتها من قبل في المرات التي نجح الموت فيها باقتطاف ثمانية من أولادها واحدا تلو الآخر.

ارتعدت روحها، وانقبض صدرها، ثم أخذت نفساً عميقاً، وتعوذت بالله مع زفرة من الحسرة.. وأدارت رأسها نحو طفليها المتبقيين (ارفاعي وعواشة).

كانا مظللين بين نسيج العتمة وخيوط الفجر، ومرصعين

بحبيبات من العرق، وقد انتثرت عليهما بقع داكنة محتقنة بالدم.

تسمرت في مكانها.. كانت علائم الحصبة بادية.. وهاهو ذلك المرض اللعين الذي فتك بمعظم أولادها يحوم من جديد على بقية نسلها. ولم تكن الرقى أو التعاويذ تجدي نفعاً، ولا تلك الأعشاب التي جربتها جميعاً في ذلك الحين.

وجدتك (اشنوف) شقراء فارعة الطول بعينين زرقاوين وضفيرة ذهبية وجبين مشع كان يتبدى كرخام صقيل حين تنزلق العصابة عنه.

تزوجها جدك (إبراهيم) بعد أن هجر زوجته الأولى (هجوس) التي عاشت أيضا على الفجائع والنكبات، إذ طوى الموت جميع أولادها الذكور، ولم يبق إلا على أربع من بناتها، لم تع منهم سوى عمتك فاطمة رحمها الله وجديلتها السوداء الطويلة التي كانت تجدلها بعد أن تجلس إلى الأرض و تربط أطراف شعرها إلى أصابع قدمها، فقد كانت ضفيرتها تمتد على امتداد قامتها. وغالباً ما كانت تخفي شعرها تحت (زبونها) أو تضمه تحت منديلها، تحاشياً لنظرات الناس، ودرءاً للعين الحاسدة.

وكانت لها روح عظيمة.. بشرتها محمصة بالشمس ووجنتاها بارزتان، لم تنحن قامتها أو تفصح عن شكواها حتى في أيامها الأخيرة التي عاشت فيها وحيدة في منزلها المطل

على بستان (الشرابي)، في حارة العلوة.

في تلك الأيام كنت تحمل إليها سطل الطعام، دافعاً بأقصى ما تستطيع باب بيتها الثقيل بأكرته النحاسية الصدئة..

وغالباً ما كنت تصل، وتجدها مستغرقة في وضوئها أو في صلاتها.. أو في إعداد شراب التمر هندي أو قمر الدين الذي لم تتخلف يوماً عن إعداده خاصة في أيام رمضان.. تلك الأيام الساحرة التي انقضت منذ زمن بعيد، حين أصبحت الحارة حكاية تحكى.. وأصبحت الوجوه ملامح ضائعة في سراب السنين.

في أيامها الأخيرة أصبحت تتردد على البيت بكثرة، وغالباً ما كانت تنام عندكم مكورة جسدها الضئيل على فراش رقيق، ومتدثرة بغطاء من صنع يديها.. وما زلت إلى الآن تذكر صوتها ورائحتها، والساعات التي قضتها وهي تبني بيديها تنوراً من الصلصال، طبقة طبقة، والنار العارمة التي أوقدتها فيه، كي تشوي الصلصال بعد أن اكتملت عمارته، وجف...

وتذكر أيضاً حكايتها عن ابنها البكر الذي أسرّته بنفسها بعد أن ولدته فور انتهائها من طحن قدر كبير من الحنطة برحاها اليدوية.. وكيف قطعت الحبل السري بحجارة دقته بها على طرف الرحى، ثم عقدته بإحكام ولفت وليدها بزبونها ووضعته على بساط من وبر الماعز.. ثم كيف تركته، و غادرت إلى نهر الفرات، وراحت تسبح، إلى أن تطهر جسدها تماماً،

ثم عادت بعد ذلك إلى ولدها، فضمته إلى صدرها، وقد غمرته بشعرها الأسود الكثيف.

وكانت فاطمة رحمها الله تشغل معظم وقتها بنسج البسط، وصناعة مفارش من قطع قماشية صغيرة تحصل عليها من هنا وهناك، وترصفها إلى جانب بعضها البعض حتى تصبح قطعة ملونة غاية في الروعة. و إلى الآن ما زلت تحتفظ بأحد المفارش كأثر فريد لتلك الروح الجبارة، التي غادرتها بالطريقة نفسها التي حددتها من قبل..

فقد كانت تعلن دائما أنها لن تموت موتاً، بل ستهترئ اهتراءً.. وقد احتفظت حتى آخر حياتها ببصرها الحاد وعزيمتها القوية.

إلى أن جاء ذلك اليوم الذي أصبح فيه استمرارها في الحياة خارج احتمالها، فرحلت بهدوء في أجواء يقينية بامتلاكها لثروة كبيرة مزروعة في مكان ما من بيتها..

وقد تم نكش البيت شبراً شبراً بعد الانتهاء من عملية الدفن مباشرة ولم يُعثر إلا على بضعة قروش وخيطان صوفية ملونة ومغزل خشبي قديم مع بعض الأواني النحاسية وبساط صوفي لم يكتمل.

* * *

زقزقة العصافير التي كانت تهب أحياناً دفعة واحدة من فرجات شجرتي الرمان والتوت المزروعتين وسط الحوش..

كانت تنجح أحياناً بانتزاع جدتك من وجومها ثواني قليلة.. تغرق بعدها من جديد في العيون المحتقنة والأجساد المنهكة.

وقد اتضح مع أول خيوط الفجر انتشار تلك البقع على كامل جسديهما كإشارات واضحة لمرض الحصبة ونذير أكيد لخطوة الموت.. فلم تعد تسمع إلا خفقان قلبها ولم تعد تشعر إلا بالنار التي تنبعث من ولديها لتتوغل عميقاً في أقاصي روحها

أيام وأيام استمرت الحالة تلك وهي تصل الليل بالنهار تذرف دموعها بصمت.. إلا أن المرض كان قد استفحل تماماً، دون أي مؤشر ينتشلها من هوة رعبها السحيقة، أو يضعها على حافة الأمل.

حتى أصبح خوفها على ولديها ينحسر شيئاً فشيئاً ليتجمع كله في فزع ورعب على ارفاعي وحده، فقد أصبحت خشيتها عليه تفوق كل حد وأصيبت بحالة متقطعة من الاختلاج مع حالات بكاء هيستيرية تعقبها على الفور نظرات وداعية يائسة.

إلى أن رفعت دعاءها الجنوني ذاك بعد أن شقت فستانها حتى آخره وهي تشهق:

(اللهم خذ عواشة عيني اليمنى.. واترك لي ارفاعي).

فأخذ هذا الدعاء يتردد في أرجاء البيت، ليصل أطراف المدينة، وليرتفع حتى بوابة السماء التي كانت مشرعة لإجابة الأدعية في ليلة من ليالي الموت تلك.

* * *

النفس الأخير الذي أطلقته عواشة من أعماق سباتها وحشرجة صدرها سفح معه ريح الشفاء على جسد أخيها ارفاعي وأسدل غلالة من العتمة الأبدية على العين اليمنى لأمها.

والخمسة عشر يوماً التي أعقبت حالة الدفن عندما طوت جدتك وإلى الأبد ذلك الفراش الصغير لطفلتها الحسناء التي ورثت عنها العينين الزرقاوين والضفيرة الشقراء والبشرة الناصعة المشرقة.

الخمسة عشر يوماً تلك التي كفت فيها العين اليسرى عن رؤية عواشة إلا في طيفها الأخير كضوء رقيق شاحب ابتلعه عماء المقبرة في تلك الفجوة الموحشة منذ اللحظة التي انتقلت فيها أنفاسها إلى رئتي ارفاعي.

الخمسة عشر يوماً تلك التي توقفت جدتك في نهايتها عن ذكر عواشة حتى آخر لحظة من حياتها حين اندفعت ذات ظهيرة قائظة إلى المقبرة بقدمين حافيتين وشعر حاسر وعيون تلهث وراء سراب ابنتها وقد تملكها يقين بأنها ما تزال على قيد الحياة.

حتى وصلت قبرها فنبشته بيديها المتشنجتين إلى أن ظهر اللحد لها، فرفعته، ومزقت الكفن، فبدت لعينيها الجديلة الشقراء.. أمسكتها بيديها، وشدتها إليها، فانسلخت عن رأسها واستقرّت بين أصابعها، فتسمّرت في مكانها، وقد

خالجتها نوبة قشعريرة حادة لا تدري كيف استطاعت خلالها أن تلقي الجديلة في القبر وتهيل التراب عليها حتى طمرتها.

ثم عادت بهيئة مرعوبة ومدحورة كشبح ميت.. واحتضنت ارفاعي، وقبلته بصمت..

ثم كفت منذ ذلك اليوم عن ذكر عواشة التي قتلها نذرها المشؤوم.

* * *

إذا كانت السماء قد أشرعت أبوابها لتضرعات اشنوف وأدعيتها القاسية.. فما الذي فعلته الأرض بها..؟ وما الذي فعله موت زوجها المفاجئ بعد فترة وجيزة من وفاة عواشة.. حين لم يتبق لها من الدنيا سوى صغيرها ارفاعي..؟

كانت ترقبه بعين حنونة متلهفة.. وهو يكبر شيئاً فشيئاً حتى اشتد عوده وارتسمت على وجهه المدور المشرق قسمات الشباب.. ومنذ أن تغير صوته، وأصبح أكثر خشونة.. ابتدأت اشنوف تفتش عن عروس له.. كانت تتلهف إلى ذريته، وبها حنين لضجيج الأطفال من جديد. كانت تريد أن ترى أولاده، وأولاد أولاده.

وهكذا بدأت تفتش له عن عروس تليق بوحيدها، تكون ذات جمال وحسب ونسب.. إلى أن عثرت له على واحدة تناسب جميع متطلباتها.. ولم تمض أيام حتى أتمت الزواج، وأقامت الأفراح والولائم.. وخلال أقل من شهر بدأت بأسئلة دائمة

ومتكررة عن الحمل وبوادره.. وهكذا، حتى مرت عدة شهور دون أن يبدو فيها أي تغير على الكنة.. حتى أصابها اليأس. بعد ذلك أخذت تفكر بتطليقها من ارفاعي والبحث له عن زوجة ثانية.. وبالفعل لم تمض سنة حتى طلق ارفاعي زوجته الأولى، تحت إلحاح والدته الشديد والذي لم يستطع التخلص منه.. خصوصاً وأنه كان حريصاً على ألا يغضبها.. فقد كان متعلقاً بها تعلقاً شديداً.. بالرغم من أنه كان ذا جلد وصلابة بادية ورثها عنها وعن أبيه في آن واحد.. والحقيقة أن (الميادين) بأسرها كانت تخشى اشنوف وتحسب لها ألف حساب لشدتها وقسوتها وقدرتها على ارتجال أشعار تقرأها على الملأ، تكون وحدها كفيلة بإذلال أعتى الرجال.

المهم أنها عاودت البحث في اليوم التالي، عن عروس جديدة.. ولم تهدأ حتى عثرت على صبية أكثر جمالاً من كنتها الأولى.. وبعد أسابيع قليلة أقام ارفاعي زواجه الثاني.. وقد كان يشعر أن ثمة طرفة لطيفة في كل ما يحدث.. حتى ابتدأت جدتك قلقاً جديداً، وهي تترقب أي مؤشر يشير إلى وحام أو انقطاع طمث، أو يدل على حمل الزوجة الثانية.. والمصيبة أن طليقة ارفاعي كانت قد تزوجت من رجل آخر وحملت منه على الفور.. ولم تستطع بعد ذلك النوم أو الهدوء لحظة واحدة، ولم تتوقف عن الثرثرة طوال النهار.. ألم تحمل زوجتك؟.. ما بها؟.. هل هي عاقر..؟ بالتأكيد أنها عاقر.. يجب أن تطلقها.. هل تريد أن تنتظر العمر كله؟.. وهكذا دواليك حتى كاد ارفاعي أن

يجن.. وهو يجيبها: توكلي على الله يا أمي.. ربما لم يأت الأوان بعد.. لم يمض على زواجنا إلا أشهر.. انتظري يا أمي..

ولم تستطع أن تنتظر أو أن تصمت.. حتى امتثل والدك للمرة الثانية إليها وطلق زوجته الثانية.

لقد كان على يقين بأن الله لم يأذن بعد.. وأن زوجتيه السابقتين أصلاً كانتا صغيرتين في السن.

كانت تلك الأيام عصيبة و مريرة على جدتك، وشعرت بأن الدنيا قد صدت عنها من جديد، وشعرت بأن ما انتظرته بلهفة، لن يتحقق لها أبداً. ثم عادت مرة أخرى إلى صمتها، وأصبح مزاجها كئيباً، ولم تنشف عينها من الدمع قط، حتى أخبرها ارفاعي بأنه قرر الزواج ثانية.. وانه اختار عروسه هذه المرة بنفسه.. ليس هذا فحسب.. بل إنها ليست من البلدة، فقد رأى صبية في إحدى زياراته إلى دير الزور.. وقد دخلت دماغه تماما.

وهكذا انتقلت أمك من لعبة (المستراح) إلى مدينة غريبة، وبيت غريب، دون أن تتمكن من فهم ما يحدث في ذلك الحين..

العين اليمنى المطفأة لجدتك، والعين اليسرى التي تلتمع بشدة، أدخلتا الرهبة إلى قلب أمك منذ اللحظات الأولى التي رأتها فيها، وقد عرفت على الفور أنها لن تجد طريقاً إلى قلب تلك المرأة.

كان المنزل الذي انتقلت إليه العروس الجديدة كبيراً، وكان والدك يعمل في أشياء عديدة في وقتٍ واحد.. من تجارة الأقمشة إلى تجارة المواشي.. وصياغة الذهب وإصلاح الساعات. فقد كان شاطراً كما يقال، وميسوراً، وكانت سريرته نقية، وروحه كريمة، وهو من أهل الدين والإيمان، وما زال أهل الميادين يترحمون عليه حتى هذه اللحظة.

في ذلك الوقت كانت أغلب القرى تصب في الميادين عن الطريق المؤدي إلى بيتكم، وأول المحلات التي يمرون هي محلات الحاج ارفاعي التي كانت تتصدر واجهة البيت، وكانت القرويات يلتففن حوله، وهن يستمعن إلى تعليقاته الساخرة وأحاديثه المرحة.

منذ اليوم الأول انخرطت أمك في الحياة العملية لزوجها، وأدركت أن حياتها قد تغيرت تماماً، وأن عليها أن تقف إلى جانبه في السراء والضراء، وشعرت بسطوة حماتها ونفوذها ليس على والدك فحسب بل على الحارة بأكملها.

كانت تستيقظ مع الفجر.. وحين كانت تتأخر للحظات، كانت تهبّ مذعورة على قصيد جدتك الساخر وعباراتها القاسية.. فتبدأ نهارها على الفور من جر الماء من البئر إلى إطعام الأغنام في (البايكة) إلى قص القماش وشراء الخضار وإضرام النار لخبز الخبز وإعداد الطعام.. وحمل الغسيل على النهر.. كانت تركض من أول النهار إلى آخره دون السماح لها بالتقاط أنفاسها أو مسح العرق عن جبينها.. حتى شعرت

بأعراض الحمل، و أعلمت والدك بذلك، فأعلم أمه بدوره بالنبأ الذي انتظرته طويلاً، والذي أيقنت بأنه لن يحدث أبداً.. فتهللت فرحاً، وأنشدت، وغنت، ووزعت خبز العباس على البلدة بأكملها إيفاءً لنذرها الذي طال انتظاره.

أشهر الحمل تلك هي الأشهر الوحيدة التي شعرت فيها أمك بالاهتمام، وحظيت ببعض الراحة خلالها، حتى ولدت مريم مولودها الأول والذي كان يعادل الدنيا كلها..

وبعد أن تجاوزت أمك أيام النفاس.. لفت من جديد حزامها، وعادت إلى حياتها. ومضت الأيام هكذا، لحظة لحظة، ويوماً إثر يوم، كانت أمك قد نضجت خلالها، وتخلصت من حنينها إلى ألعاب الحبل والطباشير، وتآلفت مع حياتها الجديدة في مدينة أخرى مع رجل لم تلتق به يوماً قبل زواجها، ومع امرأة لم تلمس منها حناناً إلا في أيام حملها الأولى..

وهكذا، حتى تناهى إلى سمعها من إحدى الجارات بأن ارفاعي يعد نفسه لزواج آخر من صبية شقراء جميلة تسكن في الطرف الشرقي من السوق.

صمتت عن جراحها، ودارت حزنها عن الجميع، وأخفت معرفتها بالأمر، ولم تهمل شأناً من شؤون بيتها، وكان (أحمد) مولودها الثاني، قد بدأ يخطو خطواته الأولى في الحارة.

في تلك الأيام ظهرت في عين جدتك نظرة ساخرة،

وابتسامة راضية، وأصبح والدك أكثر حناناً ورقة من قبل..

وفي تلك الأيام ظهرت تلك الدكنة العميقة في عيني أمك، وتلونتا بظلال الحزن.. وظهر ذلك اللمعان المشع في العين الباكية.. وحين صارحها والدك في إحدى الأماسي لم تنطق بشيء.. فقط أدارت رأسها إلى الناحية الأخرى وغصت بدمعتين تسمرتا على الحدقتين البنيتين الداكنتين.

حتى جاء يوم العرس فمسحت دموعها، وعصبت رأسها، وباركت لزوجها.. ثم أضرمت تنورها، وراحت تخبز الخبز استعداداً للولائم، وذبحت بيدها الذبائح، وأعدت الطعام.. واستقبلت الزوار من الجيران والأغراب، وهي تهلل وترحب بالجميع، وقامت بواجبها على أكمل وجه وهي تسمع صوت الزغاريد وأصوات الفرح التي ملأت البيت حتى فاضت على السماء السابعة.

وفي آخر الليل بعد أن ذهب الجميع، وقاد ارفاعي عروسه إلى غرفته.. أوقدت مصباحها، وظلت تبكي حتى تناهى إليها أذان الفجر.. فتوضأت وصلت.. ثم توجهت إلى البئر كي تجر مياه اليوم الثاني بهدوء شديد، حتى لا توقظ العروسين من نومهم .. أو تكدر أحلام حماتها بالضجيج.

***

أخذت الحياة تتغير، وتعودت أمك على اشنوف وعلى حمل تنك الماء على رأسها من النهر، وتآخت مع أم محمود، وأحبت

الجميع وأحبها الجميع.. وكان نساء الحارة يخرجن إلى النهر لغسل الثياب في جوقة من الهرج والمرج.. وكن يتسبحن ويبللن أجسادهن الغضة، فيما تلتصق عليهن الثياب المبللة، وتنحسر أطرافها عن أفخاذهن.. كان مشهداً احتفالياً بالحياة وبالنهر.. مشهداً خالصاً لنفسه.

ثم ازداد عدد الغرف في البيت مع ازدياد الأولاد، وساعدت أمك في بناء الغرف والأكشاك التي عمرها ارفاعي بيديه، فكانت تنقل الحصى والحجارة والإسمنت والرمل.. و طُمر البئر بعد أن صارت المياه الخفيفة تصل إلى البيت بساعات محددة.. وخفت ضوء القناديل الشحيحة، وظهرت المصابيح الكهربائية.. وبدأ الناس يغيرون عاداتهم في النوم والاستيقاظ والمأكل والمشرب.. دخلت ثلاجات بردى ومراوح سوني إلى البيوت.. واستحدثت مصانع لقوالب الثلج.. وجلس الراديو الضخم جلسته الطويلة في شباك غرفة أحمد.. ولم يتوقف عن الغناء والثرثرة سنوات طويلة.

صار المنزل متشعباً ومتداخلاً، وأصبح يتكون من ثماني غرف، ومن درجين يفضيان إلى الأكشاك المبنية حديثاً، وتوزعت على الجدران بعض الآيات الكريمة وصور المناظر الطبيعية.. وكانت غرفة الساكن تطل على أرض صغيرة ممتلئة بالأرانب والدجاج. في حين كانت البايكة المخصصة للأغنام مطلة على حوش البيت ثم تحولت فيما بعد إلى مطبخ وضعت في زاويته النملية الخشبية الزرقاء وطاولة خشبية مغلفة

بالبلاستيك مع بابورين من بوابير الكاز ورفوف عديدة للصحون البلاستيكية وصحون الألمنيوم والأواني النحاسية الثقيلة.

في تلك الأيام أخذت صحة اشنوف بالتدهور، وأصبح واضحاً أن أيامها باتت معدودة.. خيمت على المنزل سحابة ثقيلة من الحزن، وغص البيت بالزوار من كل مكان.. وبدا وكأنها قد تهيّأت ليومها.. صارت تنظر إلى بيتها بروية.. حجراً حجراً وزاوية زاوية.. وتتأمل أحفادها الذين انتظرت ولادتهم بفارغ الصبر.. وكانت تمسك بيدي ارفاعي بشدة ولم تسمح له بمغادرتها لحظة واحدة خلال مرضها كله.. وحين دنت الساعة، وصار عليها أن تفلت كفها من أصابع ارفاعي ضمته بشدة.. و طلبت من أمك أن تسامحها.. ثم ودعت الجميع بنظرة طويلة وابتسامة مريرة وأسلمت الروح وهي تتلفظ بأسماء طوتها السنين منذ زمن طويل.

ولم يخرج ارفاعي من حزنه حتى آخر لحظة في حياته، وظل يتردد على قبرها الذي حفره بيديه، حتى دفن إلى جوارها بعد أربع سنين ساءت فيها أحواله كلها، بعد أن خسر كل ما جناه، في لحظة من لحظات الزمن الغادرة.

هل غفرت لاشنوف قسوتها أيتها المرأة الطيبة؟.. وهل غفرت لارفاعي طاعته لأمه حين هجرك زمناً طويلاً؟.. هل غفرت لأهلك حين انتزعوك من ألعاب الطفولة.. واقتادوك إلى رجل غريب في بلدة غريبة؟.

وبعد.. هل حصلت على لحظة واحدة خالصة لك.. سوى اللحظة التي كنت تجلسين فيها على سجادة الصلاة، وتتضرعين بصمت إلى رب العباد.. وسوى لحظات الحسرة التي تزفرينها كل مساء تحت غطائك قبل أن يأخذك النوم؟.. هل فطنت إلى أوجاع الظهر وانزلاق الفقرات وأمراض النقرس والضغط؟... أكان يحملك حديث عابر من جارة طيبة إلى راحة البال.. أو يحملك شغب أطفالك إلى لحظة فرح لا تستبدلينها بالكون كله..؟

وكيف وحد الزمن بينك وبين أم محمود، بعد أن تقاسمتما التركة الخاوية ومكعبات الطين الصماء.. وتقاسمتما الثياب السود والمناديل المبللة بالدموع.. ثم مضيت مع تلك المرأة الأصيلة التي أكل الترمل عمرها قبل أن يبتدئ وأكل رحيل ليلى الفاجع ما تبقى لها؟.

* * *

في ليلة شتائية قاسية وخارج حسابات أمك.. داهمها المخاض أثناء زيارتها لأهلها في دير الزور، دون أن تفطن لجلب (الديارة) التي خاطتها بانتظار ولادتك..

إلا أن إحدى خالاتك استطاعت تدبر بعض الخرق والأقمشة التي تصلح للقماط، وتفي بالحاجة..

كان أحمد يتظاهر بالنوم في نفس الغرفة التي ولدت فيها، ولم تنجح جميع المحاولات الملحة بإيقاظه من نومه المزعوم،

حتى أطلقت صرختك الأولى، فقفز على طوله فرحاً وسط الزغاريد.. كان الليل قد انتصف، والسماء قد أفرغت ما تيسر لها من المطر.. فاقترنت رائحة الأرض الندية برائحة أمك.. وكانت تتغلغل في أوردتك معيدة لك أنفاسها الحية التي فاضت عليك، كلما فاحت رائحة الأرض.

كنت آخر العنقود.. حبة نضجت في اليتم، وتفتحت في الحكايا وسط حارة مشيدة بالطين والقناديل وهي تضيء ملامح الأحياء والموتى، وتعيد صورة ظلالهم على جدران الطين.

ضمتك إلى صدرها، وتدفق حليبها مشبعاً بلهفتها، صرختَ.. صرختَ.. حتى أطراف بسمتها الشاهقة.

وكان مصطفى قد سبقك إلى الدنيا بستة أشهر.. و حين وضعته أمه كان مصاباً بالربو، وظل مريضاً وهزيلاً على امتداد طفولته التي لم تكن تشي بكل هذه الشقاوة والعفرتة التي سيكون عليها فيما بعد.

وكان أحمد قد شب تماماً، واتضح شغفه بالقراءة والنساء.. وأصاب شباب البلدة بعدوى أفكاره المتطرفة. كان يتحدث عن هموم كونية وهموم كبرى.. وعوالم مغرية خارج أسوار الميادين. حتى استقرت في رأسه فكرة الذهاب إلى الأردن للالتحاق بالمقاومة الفلسطينية.

في تلك الأثناء كانت تجارة الأغنام قد اتسعت لدى

والدك.. فاستأجر خان أبو غروب بأكمله وحشد مواشيه هناك.. وجلب كميات كبيرة من القماش، وراحت تتوسع أحلامه وتجارته، ولم يكن يكدر صفو أيامه سوى غياب أحمد وإصرار أمك على اللحاق به وإحضاره.. في تلك الأيام تشكلت أحياء جديدة في الميادين وعشائر جديدة ظهرت بينها صراعات لا طائل منها وحروب لا نهاية لها من أجل نفوذ وأمجاد وهمية.. هكذا في حلقة مفرغة التهمت العديد من أبناء البلدة في ثارات عرض أو أرض.. أو شلالات من الدم انفجرت في شجار عابر..

وعسكرت في الطرف الشرقي من البلدة كتيبة من الهجانة كان عناصرها يتمخترون ببدلاتهم الخاكية ورؤوسهم الفارغة وهم يقطعون الطريق على الذاهبين والعائدين على طريق الجسر الذي بني حديثاً والذي ساهم في قلب موازين التجارة عند بعض التجار الذين كانت محلاتهم تقع تماما على المعابر النهرية القديمة التي كانت تمر أمام بيتكم.

لم تجف دمعة أمك ولم تتوقف عن الدعاء لله، ولم تتوقف عن الطلب من أبيك للحاق بأحمد وإحضاره من الأردن. فلم يجد بداً من السفر، وحمل أحماله، وغادر عازماً على أن يعود بابنه مهما كلفه الأمر.. ودّع زوجتيه وأبناءه، وسجّل وصاياهم على دفتر صغير، ثم غادر قاصداً مدينة إربد.

* * *

بدأ والدك يشعر بآلام حادة في المعدة بعد عودته خائباً من الأردن صار يعالجها بشرب كؤوس كبيرة من زيت الزيتون..

فقد امتنع أحمد عن رؤيته، وأرسل له مع أحد رفاقه ورقة مكتوباً عليها:

(عد يا والدي فقد نذرت دمي إلى فلسطين). قرأ الورقة وقد شحب وجهه، ثم أحس بطعنة حارقة تغلغلت في أحشائه، وارتخت مفاصله تماماً، ثم نهض بصعوبة كبيرة، ولم يتفوه بكلمة واحدة، وسار بتثاقل عائداً أدراجه تتآكله نيران مستعرة، وقد استبد به الهلع والخيبة.. ولم يعثر في نفسه على طريقة يخبر بها أمك دون أن يجن جنونها..

.. لم تع أمك ما فعلته حين عاد ارفاعي وحيداً وفي جيبه ورقة مدعوكة تحمل قرار أحمد القاطع بالبقاء.. فقد ظلت تصرخ وتبكي ساعات طويلة، وقد حمّلت والدك المسؤولية كاملة إن جرى على ابنها شيء لا سمح الله، وعصبت رأسها المصدوع، ودخلت من جديد في حالة من الحزن لم يأذن لها الزمن بأن تخرج منها حتى آخر لحظة من حياتها.

تدهورت صحة والدك بسرعة كبيرة، وفقد وزنه، وتحول الرجل الممتلئ إلى رجل ناحل وشاحب بشكل مفاجئ، ولم يمهله الزمن طويلاً حتى ابتلاه بحشد آخر من المصائب.. فقد أخذ قطيع الماشية في خان أبوغروب ينفق واحداً إثر الآخر حتى أتى على القطيع بأكمله.. وعانت تجارة القماش من كساد كامل بعد

أن لازم الفراش. وكان المرض قد استفحل، والقرحة المزمنة تحولت إلى سرطان في المعدة، ولم يكن قد تجاوز الثامنة والأربعين بعد.

في تلك الأثناء أصيب مهيدي الضويحي بطلق ناري، أحد أبناء الميادين الذين تطوعوا مع أحمد في المقاومة.. وكان أحمد قد تلقى نبأ مرض والدك، لكنه انتظر حتى يتماثل مهيدي للشفاء.. ويصبح بمقدوره أن يحضره معه.. خصوصاً وأن تأمين العلاج اللازم والدخول إلى مشفى مناسب قد كلف أحمد قتالاً حقيقياً ضد قادة الفصائل والرتب الكبيرة التي لم تكن مكترثة إلا بفنادقها الفخمة وزجاجات الويسكي الفاخرة على حد تعبير أحمد..

فعاد هو الآخر بصديق جريح وخيبة كبيرة وخوف على حياة والده التي بدا أنها قد شارفت على الانتهاء هكذا مجاناً وقبل أوانها بكثير.

وكان والدك قد أوغل في المرض، وقطع منتصف المسافة إلى عالم السرّ، واستبدت به آلام لا سبيل إلى احتمالها، وقد داوم أحمد على إعطائه الحقن بيديه حتى فتحت اشنوف الباب الموصد على أوجاعه.. كانت قد استعادت عينها اليمنى.. فأطلت وهي تمسك بطفلتها عواشة.. مدت يدها إلى ارفاعي مشيرة إليه أن يمضي معها خارج هذه الأرض الموحشة التي ضاقت عليه، وأغلقت الأبواب جميعاً عدا هذه البوابة الغسقية التي غمرت ملامحها بضوء باهر.

.. شخصت عيناه، واضطربت أنفاسه وهو يحاول أن ينهض من جسده الذي أنهكته الحياة، وغادر على محفة البكاء والعويل محاطاً بأسرته وبصوت متواتر من الأنين.

خرجت الميادين بأسرها في جنازته، ودفن إلى جوار أمه التي لم يطل انتظارها له، فقد شق عليها فراقه، واستبدت بها عتمة التربة التي نوّرت أخيراً.

كنت قد بلغت الرابعة من عمرك.. ولم تكن مدركاً للموت آنذاك.. ثم ضاعت مع الزمن ملامح أبيك، ولم يتبق إلا هالة بيضاء تحيط صورته الغائمة.. وأحاديث عابرة عن وسامته وسريرته الطيبة.

ولم يتبق من لحظة موته سوى أصداء البكاء الفاضحة، أو الأنين المكتوم الذي ظل يخز صدر أمك، حتى آخر نبض لقلبها الذي انطفأ في بلد غريب على غفلة منها.

وكنت تحتضن صورتها بين ضلوعك.. عين على حافة الدمع، وثوب حداد لم يسمح الزمن المرير باستبداله.. لون الغناء الحزين.. النعي والقصيد الذي يجعل الروح تشهق بالبكاء.. العيون الموشكة على الدمع والتي تعتصر القلب.. سجادة الصلاة.. إبريق الوضوء النحاسي وضوء الفجر الذي ينسكب عليه.. مسبحة العقيق.. قلائد اللبن المجفف.. معطفها الصوفي وفصل الشتاء الأخير.. إبر النسيج وكنزات الصوف.. هبرية الحرير.. الحنة الداكنة.. صلاة الضحى..

حكايا السلاطين.. الكحل العربي.. خبز العباس والنذور التي ضاعت في دروب الدعاء.

* * *

حين انفض العزاء وأغلق الباب على أهل المصاب.. علقت صورة أخرى على الجدار.. وانطوى فراش آخر.. وأغلق باب (القاصة) الكبيرة والخاوية على ساعة أبيك التي توقفت عقاربها على ميقات رحيله.

وأحدث باب من داخل البيت يفضي إلى محل القماش.. وصارت أم محمود تقص أقماش العرس والزينة للقرويات. وكانت تتقن القراءة والكتابة وتحفظ أبياتاً من الشعر مازالت ترددها حتى هذه اللحظة.

ولم يكن ثمة وقت للحزن والبكاء.. فقد كان الحمل الذي تركه المرحوم أكبر من الجرح وأكثر حرقة من الدموع. وكان ثوب الحداد الدائم يفصح عما في القلب.. والدمعة الجارية سرّاً أو الدمعة التي كانت تنشف على حواف العين في مطلع الفجر تفصح عن رغبة في بكاء لا يتوقف.. لكنه ينبغي أن لا يشعر اليتامى بيتمهم، وأن لا تنخفض عيون أولاد الحجي رحمه الله.

وتآزرت الأرملتان يداً بيد، ونشأ الجميع على والدتين اثنتين.. ولم يفرقا بين أولاد القلب.. ومضت الأيام كما ينبغي لها أن تمضي.. ثم عاد أحمد إلى شقاوته، وأمك إلى خشيتها

عليه، حين بدأ بتحريض أولاد البلدة على شيوخ العشائر والولاءات القبلية، وظهرت على جدران المدينة الشعارات التي تسفه المتملقين الذين يبيعون أصواتهم ونفوسهم مقابل لقمة الثريد.. وصار واضحاً للزعامات أن عليهم أن يضعوا حداً لأحمد هذا الذي لا يوفر مناسبة لانتقادهم.. حتى أخطأته طلقة من مسدس مجهول عندما كان يتمشى على ضفة الفرات ذات ظهيرة.. واستقرت في جذع شجرة قريب.. كان إنذاراً جاداً لم يكترث به أحمد حتى أوثقه بعض الرجال في إحدى الليالي، وألقوه على ظهر شاحنة صغيرة.. ثم قذفوا به أمام باب البيت عند مطلع الفجر، وكان جسده ينزف بشدة.. وقد كان مقرراً أن يصفى في تلك الليلة، لولا تدخل كرّوم العيد وبعض أصدقائه الذين خلّصوه في اللحظات الأخيرة بعد أن انتزعوا منه الوعود القاطعة بأن يصمت تماماً وأن يكف عن مهاتراته.

* * *

الأيام التي أمضيتها على مدارج الطفولة، والأيام التي أمضيتها في أنفاق الروح وعلى مشارف الذاكرة تغلق عليك الأبواب الأخرى، وتبقيك حبيس تلك الرائحة التي تملأ أنفك، من قرية ذيبان إلى قرية الحوايج إلى قرية (الفاطسة) التي أصبح اسمها (الطيبة) مع مرور الزمن.

ورائحة أشجار الحور والزيزفون التي تنبعث من قرية الحوايج ومن بستان بيت (شتات) مطعمة برائحة البيض

المقلي بالسمن العربي وخبز التنور الحار.. ومزيج آلاف الروائح التي تبعثها الأرض في فورتها.. ورائحة النهر التي انزلقت من كتف الصيف الأول الذي تعلمت فيه السباحة أنت ومصطفى عندما أغواك ذات ظهيرة بالعبور إلى الضفة الأخرى.

كنتما تتسللان إلى السباحة دون علم أحد، على الرغم من المنع الحازم من جميع أفراد الأسرة.. لكن لا شيء كان بإمكانه الوقوف أمام رغبتكما الشديدة في ولوج النهر والاستمتاع بالسباحة آنذاك. كان الشاطئ الصيفي مغرياً وساحراً؛ وكانت نقاط الماء الباردة التي تبلل الأجساد أول النزول تفوق كل شعور..

سباقات القفز والغوص والعوم كانت دائما تقام قرب حويجة مناع، وهو أفضل مكان للسباحة.. على الرغم من أن صالح الحمش (ابن باع) أوشك ذات يوم على الغرق فيه، لولا أن هرعت إليه، وأنقذته آنذاك من موت أكيد، وأراد مكافأتك بنصف ليرة سورية ثمناً لحياته الغالية.

في ذلك الصيف، كنت تراقب نحافتك الشديدة.. المهم أن فكرة عبوركما النهر لم يقف أمامها أي شيء، وقد نجحتما بعد مجاهدة كبيرة وبمعونة جالونات السباحة المعدنية من الوصول.. فألقيتما بجسديكما الصغيرين المنهكين على الضفة الأخرى تحت الشمس الحارقة وأنتما تلهثان، إلا أن شعوراً رائعاً واسترخاءً لذيذاً تخللكما بعد ذلك وأنتما تتمرغان على الرمل الحار في

الضفة الأخرى التي شهدت مغامرتكما الأولى على النهر.

.. كان يوماً محفوراً بذاكرة البلدة، وظل لزمن طويل يتردد على ألسنة العائلة.

أتذهب إلى بيت شتات..؟ قال مصطفى دون أن ينظر إليك، ثم نهض باتجاه البيوت المطلة على الفرات.. كنتما تعلمان أن قرية الحوايج تقابل البلدة تماما من جهة النهر، وأن بيت حاج شتات قريب من الشاطئ.. وقبل أن تعترض على رغبة مصطفى كان قد توقف عند أحد القرويين وراح يسأله عن بيت الحاج شتات، فأشار بيده إلى منزل قريب.. توجهتما إلى هناك، وبعد بضع وقفات واستفسارات أخرى، وصلتما إلى بيت شتات الذي كان مكتظاً بعدد هائل من البشر.

أشكال متنوعة من الفساتين القروية بألوانها الزاهية تمر أمام أعينكم.. أصفر، أزرق شامي، برتقالي، عباءات مزينة بالخرز وأخرى مقصبة، هباري وشالات تتطاير مع اللغط والضجيج.. ما الذي يحدث..؟ سألك مصطفى فيما كنتما تحشران جسديكما العاريين بين الجموع، وترفعان رأسيكما من بين السيقان لعلّ أحداً يلحظ وجودكما.. وبعد حين التفتت إحدى نساء الشتات فرأتكما.. فأصابتها الدهشة: أهلاً.. أهلاً بأولاد الحجي.. ما الذي جاء بكم؟ وكيف وصلتم إلى هنا؟.. هل جئتم مع الأهل؟.. أهلا وسهلاً.. ثم نظرت بتمهل.. لا.. يبدو أنكم سبحتما إلى هنا.. ثم ذهبت على الفور لإحضار جلابيات وهي ما تزال مستمرة بالحديث.. بالتأكيد لا يعلم

أحد بقدومكم.. أليس كذلك؟.. فأجابها مصطفى على الفور.. بلى.. بلى كلهم يعلمون.. لقد أخبرناهم.... أيها الأشقياء يجب أن تعودوا قبل أن يقلق الأهل عليكما، كما أننا اليوم مشغولون كما ترون.. إنه عرس ابني أحمد وسأطلب من (أبو أحمد) أن يكلف أحدا بإعادتكم.. أما الآن فسأضع لكم شيئا تأكلانه، ثم عليكما بعدها أن تستعدا للرحيل.. فأجابها مصطفى؟؟ لسنا جائعين.. ثم إننا نريد أن نحضر العرس.. عندها التفتت إليه وابتسمت قائلة.. عليكما أن تعودا..

في تلك الأثناء كان جميع السباحين يبحثون ويغوصون في النهر قرب المكان الذي عُثر فيه على ثيابكما، في الوقت نفسه الذي لم يرد فيه مصطفى العودة لولا أنه أرغم على ذلك، في حين أنك أخذت بالبكاء حين تأخر الوقت عليكما، واستبد بك القلق، وعرفت أن الجميع هناك ستأخذهم أسوأ الظنون.

قبل مغيب الشمس كنتم على ظهر حمار تعبرون الجسر الذي بني حديثاً في شرق المدينة..

بينما كان النواح واللطم عامراً على ضفة النهر إزاء الزغاريد التي تتناهى من الضفة المقابلة، فقد كان الجميع على يقين من غرقكما، وكانت ثيابكما قد غرقت بدورها بدموع أمك وأم محمود حين دخلتما أبواب المدينة مع المغيب.. وسط يقين أكيد بموتكما.

* * *

مع مغيب الشمس كانت المصابيح المعلقة على أعمدة الكهرباء، تضاء تلقائياً.. فتخرج أم حسين للجلوس على عتبة بيتها.. وتتحول ساحة الحارة إلى ميدان للألعاب الليلية.. ويتعالى صوت التلفاز في بيت أبو عدنان، الذي جاء بهذه المعجزة التي غيرت النفوس والعقول. وكان كل من هب ودب، صغير الحارة وكبيرها يجتمعون في بيت أبو عدنان وهم يتابعون بشغف أحداث مسلسل جواهر، تتخلله الكثير من الدموع والتأوهات والشتائم.. وصيحات الاستنكار التي تطلق عادة عند نهاية كل حلقة.. حتى دخلت هذه الآلة العجيبة إلى كل البيوت.. بيتاً تلو الآخر.

ثم جاء سندباد على سفينته ليطوف بك وأنت تلتهم المزيد من صحون الفول المدمس مأخوذا بمصباح علاء الدين ومارد الطاعة الجبار.. ثم تسمرت عند مقطوعة موسيقية ظلت تتردد في رأسك سنوات طويلة دون أن تعرف اسمها أو تحصل على نسخة مسجلة عنها.. حتى أهداك مضر شريطاً كان يحتوي بالصدفة على تلك الموسيقى.. وحتى وقت متأخر كنت تغفو وهذا الشريط يدور ويدور قرب رأسك.. وكم من الأحلام والأوهام أيتها الليالي.. وكم من الخيبات التي تلوكها كل مساء والحسرات التي تزفرها.. كم من الوجوه التي رافقت صباك وحملت شبابك، تحزّ قلبك بسكين الحنين دون جدوى.

لم يبق جحر لم تختبئ به، ولم ترو حكاية دون أن تطوف بها.. ولم تبق صبية لم تغرها بقطعة من قطع الراحة التي كنت

تبيعها في صينية البافون.. أو تضمها إليك في لعبة شد الحبل.. وكنت قد بدأت تتعرف على جسدك وتسطو على صندوق طه الخشبي المغلق على مجلات البلاي بوي الدبقة.. أو تعتصر الجسد الناضج لهدى التي أدمنت اللعب العنيف معها، وأنت تطاردها من غرفة إلى غرفة.. حتى يغيب الضوء فتهرع إلى أهلها.. وأحيانا كنت تقوم بإيصالها ممسكاً بيدها في الأماكن المعتمة فتسري قشعريرة بكامل جسدك.. وكنت تسرع بخطاك حين تمر أمام بيت سلطان الذين ابتلى الله أولادهم بالبله.. فكانوا يجرون أنفسهم جراً وقد ارتخت رؤوسهم فوق أكتافهم وتشنجت أصابعهم.. وكانوا يلقون التحية على كل من في الحارة بأصوات متهدلة وأفواه ممتلئة بحروف مبهمة..

وسرعان ما تنتثر النجوم في السماء، أو يسطع قمر على الشرفات المترقبة في ذلك الدرب.. حتى امتنعت عن المرور في ذلك الطريق وقتاً طويلاً.. حين تجمعت الحشود ذات صباح على رأس مهشم وحائط حفرت عليه آثار فأس حادة وقد اصطبغ بالدم.

***

كانت جميع القرى تصب في الميادين طيلة أيام الأسبوع، ولا تنحسر الموجة إلا يوم الجمعة حيث تستريح البلدة من المشتري والبائع على حد سواء.. وتسترخي قليلاً داخل نفسها.. وكانت صبب (الفورة) تنتقل من بيت إلى بيت.. ويخرج الرجال لصلاة الجمعة متضمخين بالعطور الثقيلة وهم في أبهى

حللهم.. فيما يرتفع في الفضاء صوت الخطيب الذي يجعل القلوب والأرواح ترتعش في خشوع.

في تلك الصباحات.. يسود البلدة مناخ من الطمأنينة، وتشيع بين سكانها حالة من الكسل والتراخي اللذيذ.. ويصبح لكاسة الشاي والسيجارة مذاق آخر، وللتشمس تحت سماء الله الشاسعة نكهة أخرى..

وفي صباح من صباحات الجمعة استيقظت الميادين على خبر سرقة كبيرة لأحد محلات الذهب وقد سبقت هذه السرقة، سرقات متعددة بأسلوب موحد وكان واضحاً أن شلة من اللصوص المحترفين الذين كانوا يسطون على محلات الصاغة.. ما زالت تمرح وتسرح دون أن يتمكن أحد من إيقافها...

مددت رأسك من ناصية السطح لتتبين ما يحدث.. فقد علت أصوات خطى مسرعة وأصوات كلاب غريبة تنبح دون توقف أمام المحل المنهوب.. نزلت مسرعاً، وكان إخوتك قد سبقوك، ومصطفى يقفز من هنا إلى هناك وهو يسأل عن أصل الحكاية وفصلها.. ذلك اليوم كانت المرة الأولى التي سمعت فيها بالكلاب البوليسية، وعلمت أنها كلاب مدربة ومجهزة لمعرفة المجرمين واللصوص وتجار المخدرات.. وأن الشرطة قد جلبتها من دمشق، بعد أن عجزت عن اقتفاء آثار تلك الشلة المستهترة.. وجرت التحقيقات والتحليلات البوليسية الدقيقة والمشاورات والمناورات.. ثم جلب المشتبه

بهم وأصحاب المحلات القريبة وأجراؤهم وكل من نظر نظرة حسد ذات يوم إلى الصندوق الزجاجي المكتنز بقطع الذهب الثمينة.. جرت تحقيقات مفصلة مع الجميع، فاستبعدوا البعض، وقربوا البعض، وأطلقوا أنوف كلابهم المرهفة كي تفصل في الأمر.. بعد أن اصطف المشتبه بهم في رتل واحد..

صارت الكلاب تجري وتتقافز وهي مستمرة بالنباح وبهز أذنابها دون أن تهدأ، حتى انقضت على (الباشا)، وكادت تمزقه.. وعاودوا الكرة عدة مرات، وفي كل مرة كانوا يبدلون مكان وقوفه.. وتعاود الكلاب الهجوم عليه.. فاقتيد الباشا مكبلاً إلى السجن تحت سيل من اللكمات والصفعات يكيلها إليه عناصر الشرطة المدربة بدورها تدريباً فائق المستوى بعد أن أثبت هياج الكلاب ونباحها المسعور تورطه في تلك السرقات.. وهو يصرخ.. والله بريء مظلوم.. بريء.. ثم قذفوا به داخل السيارة وانطلقوا..

انتشر الخبر في الميادين كالهشيم في النار، وأصبحت سيرة الباشا على كل لسان فور الانتهاء من صلاة الجمعة، وتضاربت الآراء بين مصدق ومشكك ومكذب.. وكان الباشا ممدداً على بساط الريح في مخفر الشرطة يتلقى الضربات الموجعة من الكبل الرباعي.. دون أن يتمكنوا من حمله على الاعتراف أو الإقرار بأسماء شركائه المفترضين. كوفئت الكلاب على مهاراتها.. وارتفعت النشوة إلى حدها الأقصى في رأس المحقق الذي كاد أن يحصل على الاعتراف بعد أيام

من التعذيب الدائم لولا أن ألقي القبض على أفراد العصابة في بلد آخر.. وتم اعترافهم بالسرقات التي قاموا بها في الميادين، ثم تبين لعناصر الشرطة ومدربي الكلاب، فيما بعد.. أن الكلاب كانت تهجم على الباشا بسبب رائحة السمن العربي التي كانت عالقة في ثيابه..

فالباشا الذي لم يتمكن من النهوض على قدميه عدة أسابيع، كان يعمل في محل لبيع السمن العربي والصوف ومختلف أنواع الأجبان والألبان.. وإن تلك الرائحة النفاذة للسمن العربي الأصيل، هي التي فتحت شهية الكلاب البوليسية المدربة تدريباً عالياً..

ظل أهل البلدة وأصحاب المحلات يتندرون بهذه الحكاية، ويماحكون الباشا كلما مروا من أمامه، أو توقفوا عنده لشراء السمن واستنشاق رائحته المميزة.. وكان السوق المقبي أهم مصدر للرزق، يعج بمختلف المهن والمحلات.. كان مزدحما على الدوام بالناس القادمين من مختلف القرى المجاورة.. وكانت ذروة البيع تعقب مواسم الحصاد، وكانت نساء القرى هن المسؤولات عادة عن جميع الأمور، من الزرع والسقاية والرعي وجلب الخضروات واللبن.. إلى شراء اللوازم الضرورية أو مقايضتها بأحمالهن.. وكن يتمتعن ببنى قوية وقامات مشدودة، ويتجولن في السوق وهن يعببن سجائر اللف التي يدخنها. فيما يضطجع أزواجهن طيلة النهار وهم يرتشفون أكواب الشاي المحلى بمقادير كبيرة من السكر.

و(طهيّم) المعاق ذو اليدين المعقوفتين والفم المرتخي والرقبة المتشنجة على اتجاه واحد.. كان حمالاً يقف عند زاوية السوق، ممتطياً بغلته الرمادية، يترزق الله، ويكسب لقمته من عرق جبينه، دون أن يرضى صدقة من أحد.. وكان أغلب أصحاب الدكاكين يمدونه بالزبائن الذين لا يتمنعون عن منحه أجرة زائدة.. في الوقت الذي لا تتوقف فيه مطرقة أبو داوود الكلاش ومقصه عن إصلاح الأحذية وهو يخرج المسامير الناعمة من فمه الذي أصبح مذموماً بعد أن حصل على جنسية دولة عربية أخرى .. وأبو صادق الذي تحول إلى تاجر كبير بعد أن عثر على تنكة من الذهب مطمورة في مكان ما.. ومحل أبو أحمد (المعسّم) الذي لا يفرغ من الزبائن، وقد أطلق عليه أهل البلدة هذا اللقب لبخله ونهمه الكبير.. وأبوعدنان الشرابي رحمه الله البقال الطيب الذي كان يضع السكاكر في قطرميزات من البلور في واجهة المحل، ولم يبق أحد في البلدة لم يتذوق تلك السكاكر التي لم يبخل بها على أحد. محمد العطوان وأوانيه النحاسية.. أبو زياد وحليبه المغشوش.. أبو أحمد الحلاق ومقصه الشاطر.. وآخرون أغلقوا دفاتر ديونهم ورحلوا عن الدنيا، وآخرون ما زالوا يرتعشون خلف بضائعهم الكاسدة، وآخرون التهموا محلات جيرانهم، وما زال صوت أحمد الدلال ينادي دون أن يلتفت إليه أحد، فيرجع إلى قنينة العرق، ويوصد عليه غرفته المبنية على شكل مثلث في الطرف الشمالي لحارتكم.

بعد تلك الحادثة قرر أصحاب المحلات تعيين حارس ليلي على نفقتهم الخاصة، ومدوا أشرطة من المصابيح الكهربائية.. فصار السوق مضاءً، وتحول إلى ميدان جديد للألعاب الليلية، وكان الحارس يستلقي على فراشه الممدود وسط السوق ينفث دخان سجائره، وفي ليالي الشتاء كان يوقد ناره في تنكة مخرمة، ويحتضنها حتى يخرج المصلون لصلاة الفجر، حيث يحزم عدته، ويمضي..

في وسط السوق الغربي كان دندش يقف في محله الصغير الممتلئ بقطع الخردة والطباخات النحاسية والقناديل، متأففاً من الزبائن المتعجلين دائماً وهو يخط شريط الرصاص بطرف مكواته الناعمة.. وكان دندش دائم الشكوى تنتابه أحاسيس متضاربة تجعله يقفل محله في منتصف النهار ويغادر، فقد تولد لديه شعور بأن الدنيا قد ظلمته، وأن عقله هذا المحشور داخل (اللفحة) القطنية يزن بلدا بأكمله، وأن بإمكانه أن يصنع أشياء يعجز عنها الأجانب أنفسهم. لكن ما الذي يقوله في حظه العاثر الذي جلبه إلى بلد كهذا؟!.. وكان لا يغادر محله دون أن يحمل خردوات جديدة يكدسها في منزله الذي يوصده على نفسه جيداً ولا يغادره إلا في اليوم التالي.. وقد كان والله أعلم منكباً على تجارب ومخترعات جديدة لم تجتز عتبة بيته مطلقاً.

وقد شغلته اختراعاته عن حياته الخاصة، فلم يجد وقتاً للزواج أو للتفكير بذرية تكمل مشاريعه المستعصية.. ثم إن أي

امرأة سيختارها لا يمكن أن تتفهم وجود هذه الخردوات المتراكمة في كل مكان مهما بلغت من ذكاء، وإنها حتى لو تفهمت قليلاً، فستطلب منه بالتأكيد إفراغ إحدى الغرف كي تضع فيها أغراضها، فهي عروس ومن حقها أن يكون لها غرفة مستقلة.

.. لكن العروس لم تأت، ولم تنجح تجاربك يا دندش، ولم تتوقف عن جلب الخردوات التي طمرتك.. ولم تتخل عن أحلامك، وأنت تحدق بعينيك الغائرتين إلى زبون أبله.

وفي الطرف الآخر من السوق كان أجراء أبو صبيح يطنون كالنحل منذ الصباح وحتى مغيب الشمس وهم يوزعون الطلبات على أصحاب المحلات وزبائنهم.. شاي، قرفة، نومي، زهورات.. وكانت كراسي القش الصغيرة وطاولات الصاج الدائرية موزعة أمام محله وقد تكوم عليها القرويون بفرواتهم الصوفية الثقيلة.. يطوف أبو صبيح فوق رؤوسهم بصينيته البافون وجمجمته الصلعاء الضخمة وقميصه الكتاني الأزرق.. ولم يكن من منافس له في السوق كله لولا أن أصبح آل نزهان يوزعون المشروبات الباردة والمثلجات التي بدؤوا بتصنيعها في بيوتهم بعد أن جلبوا من حلب برادات ضخمة وتعلموا الصنعة في مكان ما خارج الميادين..

وبعد أن ينتهي القرويون من أعمالهم كان لا بد أن يقوموا بأمرين لا سبيل إلى تفويتهما تحت أي ظرف كان، وهما.. تناول الكباب الشهير والتمتع بطعمه، والمرور على محل الحلبي

لشراء كميات كبيرة من المشبك واللقم، وبغير ذلك لا يصبح للقدوم إلى الميادين أي معنى.

* * *

لم يتبادر إلى ذهنك قط، أن الحكايا التي كانت ترويها أم محمد هي محض خيال..

بل هي أنفاس حية خفقت في زمن بعيد، وعلى أرض غير هذه الأرض، وربما تكون قد شهدت بعضها أيضاً، كما أن الرؤى والأحلام التي كانت تراودها حقيقية.. والجنيات اللواتي كن يسكن مطبخها والتي كانت تراهنّ في بعض الأحيان على هيئاتهن الحقيقية أو متنكرات بأشكال أخرى، كنت قد آمنت بهن أيضاً..

وقد روت مرة أن عائلة من الجن قد تنكرت على هيئة دجاج وجوقة كبيرة من الصيصان كانت تجوب مطبخها بعد مغيب الشمس، وكانت العائلة تختفي كلما دخلت أم محمد إلى المطبخ، إلا أنها كانت تلمحها أحياناً من بعيد وهي مستلقية على بساطها في طرف الحوش.. والجنيات اللواتي كانت تتحدث عنهن كن طيبات يساعدنها في تنظيف البيت وترتيبه.. على عكس الجنيات اللواتي تحدث عنهن طريف ابن خالتك حيث كن يعبثن به ويصدرن أصواتا صاخبة تحرمه من النوم، وكان يراهن يتأرجحن على حبال الغسيل، ويتقافزن قرب رأسه مسببات له فزعاً كبيراً، ولم يكن بمقدوره التخلص منهن، حتى

يقرأ المعوذات جميعاً.. حتى إن بعضهن كن يوقظنه من نومه كلما أغفى، لينهض على فراغ من العتمة الموحشة.

لكن أم محمد كانت متآلفة معهن، وكانت تسميهن بالرحمانيات.. وهن من المؤمنات الصالحات اللواتي يذكرن الرب ليل نهار، ويخرجن إلى عالم الإنس لثلة قليلة من البشر.

وكثيراً ما كانت تراود أم محمد أحلام تتحقق في وقت قريب .. وقد حلمت ذات يوم أنها رأت كنزا أسفل الحائط الذي يفصل بينكما.. وقد أخبرت والدك بهذا الحلم، وأكدت له أنه سيجد كنزاً إن هو أنصت إليها، وحفر في المكان الذي أشارت إليه.. فنهض والدك من فوره وبدأ بالحفر، ووصل إلى عمق عدة أمتار، حتى اصطدم بقطعة رخامية ضخمة لم يتمكن أبداً من زحزحتها، فاستعان ببعض أصدقائه الذين عجزوا بدورهم عن تحريكها.. وقد حاولوا بكل الوسائل، فلم يتمكنوا من ذلك، حتى أخبرتهم أم محمد بأنها مرصودة، وبأن الاستمرار في هذه المحاولات سوف يغضب الله ويجلب المصائب على أهل الدار.. فقام بردمها من فوره، وصب فوقها عدة أكياس من الإسمنت.

ظلت قصة الكنز المرصود تتردد في البيت زمناً طويلاً وظلت أمك تروي هذه الحكاية وتصف قطعة الرخام التي رأتها بعينها.. لكن أحداً لم يخطر بباله أن يحفر المكان من جديد. وظل الكنز محض حكاية تشير إلى أحاديث أم محمد وأحلامها.

وكانت أمك تشير دائماً إلى المكان الذي حفره والدك وهي تردد.. الله أعلم، من يدري ماذا يوجد خلف قطعة الرخام تلك.. لكنها لم تطلب من أحد أن يعيد المحاولة.

.. كأنه الأمس، وكأن ما مرّ، عالق في الروح، وزوايا القرميد الناتئة من جدران بيتكم تطل عليك من الأمكنة الغريبة.. وكأن أختك ليلى تقرأ عليك مذكراتها الآن، وكأنها تعيد عليك الرجاء أن تكتب عنها وهي تئن في فراش الموت.. وتنظر إلى عمرها المسلوب وقد التهم المرض اللعين خلاياها خلية خلية.

كانت تنوح على نفسها، وتبكي على شبابها.. وفي فصل حياتها الأخير ظلت تردد على أسماعك: اكتب.. اكتب عني يا إسماعيل.. اكتب عن شعري الذي انسلخ، وعن صدري الذي اقتطع.. عن ظهري الذي تفسخ، وعن مفاصلي التي لم تعد تحملني.. اكتب عن وجعي، وعن طفلي الرضيع.. عن رغبتي في الحياة.. اكتب.. اكتب عن غرفتي على السطح، ودفتر مذكراتي.. عن كتاباتي التي كانت تعجبك.. عن صداقتنا، وأخوتنا، وعن العشاء الذي كنا نعده لنا وحدنا، وكيف كنا نضيف الماء إلى البيض المخفوق.. اكتب عن حلاوة الروح ومرارة الفراق.. اكتب... وكان يغيب صوتها في الأنين.. وتغيب عيناها في نظرة الوداع، وجسدها في تهتكه وألمه.. وكانت تشير إلى طفلها الذي لم يتذوق حليبها وإلى عمرها الذي لم تعشه.

كنت صامتا .. لم تنبس بحرف واحد، وكانت أمك وأم محمود تحيطان بها من يمينها ومن يسارها.. وهما يذرفان دموعهما. و في الأشهر الأخيرة لم تعد ليلى تستطع النهوض من فراشها، كانت مستلقية على ظهرها، ومدثرة بغطاء ثقيل يشع منه وجهها الطافح بالألم والرجاء، إلا أن السبل انقطعت كلها، والموت جالس على حافة السرير ينتظر أن يخفت قليلاً ضوء وجهها المتوهج.

ودّعتها وخرجت.. كنت تعلم أنك لن تراها مرة ثانية، وقد احتبست الدموع في عينيك وغصت كلماتك الخاوية في بلاهة المعنى الذي تشكله الحياة ويمسحه الموت.. وظلت تنوح تحت عيني أم محمود وتتلاشى.. حتى أغمضت عينيها في ذروة من ذرى الألم.. شهقت أم محمود.. احتضنتها، وانفجرت بالبكاء الذي احتبس سنين طويلة.. ذرفته كله.. والألم الكاسر الذي مزقها.. وندبتها حتى تحطمت الضلوع.. ومازالت تشهق في البكاء.. وهي تذكر كيف سيّرتها إلى عرسها في الرقة.. وكيف تركتها في تلك المدينة الملعونة التي نصبت أشراك الموت لأعز ما لديها.. واستدرجت أمك إلى مصائدها، حيث نصب الموت كمائنه من جديد.

.. ما الذي تفعله الأرواح حين تغادر في سماء غير سمائها؟.. وما الذي يفعله العابرون في دروب غير دروبهم، حين يأتي الموت على المفارق الغريبة.. ضارياً وموحشاً؟.. فلمن أسلمت أحلامك يا ليلى؟.. ولمن أورثت روحك يا أمي حين كتم

الموت أنفاسك غيلة.. في غرفة خاوية؟.

* * *

في الصيف كانت المدينة عرضة لموجات غبارية كثيفة تجتاح بيوتها، وتغلق منافذها، وتكتم أنفاسها.. وكان ثمة علائم تشير إلى اقتراب عواصف العجاج.. ففي البدء يصبح الهواء ثقيلاً، والتنفس صعباً، ثم يبدأ لون السماء بالتبدل، وتنكسر حدة الشمس.. وتأخذ بالتواري رويداً رويداً.. ويصبح للسماء لون ناري كتيم، ويخيل للجميع أن الساعة قد قامت، حين تبتلع العتمة الضوء، ويحل الظلام في وضح النهار.. ثم لا يعود بالإمكان أن ترى الكف.. فتضيع الجهات، وتعم الفوضى في الشوارع والأسواق والبيوت .. وتنقلب سحن الجميع، فتتعفر وجوههم وأجسادهم، وتمتلئ حلوقهم وأنوفهم بالغبارالواخز الذي اكتسحهم تماما... ومرة كنت تركض عائداً إلى البيت محاولاً الوصول قبل أن تهبط العاصفة، لكن الوقت كان قد فات، فداهمتك في السوق.. كان الجميع يتراكضون على غير هدى ويرتطمون ببعضهم البعض، وكنت تمد كفيك أمامك فلا تراهما.. وكنت تصطدم دائماً بأحد الأشباح الفزعين.. وبعد جهد جهيد، وبعد ارتطام متكرر بالعربات والبشر تمكنت من الوصول أخيراً.. وأخذت تقرع بشدة مراراً وتكراراً دون أن يفطن إليك أحد.. ثم أخذت تصرخ وتصرخ حتى فتح الباب، ولم تتبين من الذي غامر، لولا أن سمعت صوته.. كانت ليلى قد فتحت الباب وهي تصرخ.. هيا ادخل بسرعة.. دخلت راكضاً..

كان جميع من في البيت قد وضعوا خرقاً مبللة على أنوفهم، وقد أوصدوا الأبواب والنوافذ، وغلفوها بقطع النايلون والقماش منعاً لتسرب الغبار.. لكن هيهات.. فالنوافذ والأبواب القديمة كانت دائماً تسمح بدخول كميات كبيرة من الغبار..

كان مصطفى يضحك بصوت عال.. ورشا خائفة.. طه يسب ويشتم.. وياسين يحمد الله.. ووالدتاك، أمك وأم محمود، كانتا تحدقان فيكم، وقد علت وجه كل منهما ابتسامة مبللة بالطين..

وبعد أن تمضي العاصفة في طريقها، وتبزغ الشمس من جديد، تكون الميادين كلها قد اكتست بلون موحد من التراب الذي غمر الأشجار والبيوت والبشر.. وغالباً ما كان يعقب تلك العواصف هطول غزير للمطر، سرعان ما يغسل أمتار الغبار المكدسة.. في حين تسرع النساء في جميع البيوت لكنس الغبار قبل أن تهطل السماء، فيتحول التراب إلى طين متلبد.. وعندها يزداد الطين بللاً، فتصبح الأمور بحاجة إلى جهود مضاعفة كي تعود إلى حالها.

وكانت أيام الصيف شديدة الحرارة، حتى أن الشوارع القليلة المغطاة بالإسفلت كانت تغلي تحت وهج الشمس الحارقة.. وفي المنزل كنتم تتقاسمون الغرف في تلك القيلولات البعيدة.. مجموعة تستلقي في غرفة الضيوف أمام المروحة العمودية الخضراء التي تصعب زحزحتها إذ كانت قاعدتها المستديرة مصبوبة بالإسمنت.. ومجموعة أخرى في

غرفة أحمد تحت هواء المروحة السقفية التي كنت تخشى من سقوطها كلما رفعت رأسك إلى الأعلى ونظرت إلى السقف المشبوك بقضبان خشبية منخورة.. وغالباً ما كنتما تتسللان إلى النهر أنت ومصطفى.. لتطفئا حرارة الطقس بماء الفرات البارد.. في تلك الأيام قمت بتشكيل عصابة من أولاد الحارة، وقد وزعت عدداً من الصفارات على أفراد العصابة، بحيث يصبح بمقدور أي واحد إطلاق صافرته في حالة الخطر أو للإشارة إلى بدء الاجتماعات التي أسفرت عن معارك ضارية مع الحارات المجاورة.. وكان عدنان الشرابي هو الوحيد من أفراد العصابة الذي ينتمي إلى حارة ثانية وقد تسبب قتالك العنيف معه إلى انحلال العصابة، وإخفاء الصافرات إلى الأبد.. وكنت قد أتيت بفكرة الصافرات من فيلم عصابة الكلاب الذي رأيته في السينما في أول عرض تراه في حياتك آنذاك.

وفي أحد مواسم الصيف أغراك مصطفى ببيع أشرطة من السكاكر، كان يأخذها من محل المعسم ويبيعها.. ليخرج بنهاية النهار بليرة أو ليرتين، فحملت عدة أشرطة، ورحت تدور في السوق، وتذهب إلى العيادات وأماكن نقل القرويين وأنت تنادي بخجل على بضاعتك التي لم يقلبها أحد.. وفي نهاية النهار كنت تعود بأشرطتك كاملة، في الوقت الذي يعود فيه مصطفى عدة مرات إلى محل المعسم ليأخذ المزيد من الأشرطة.. منذ ذلك الوقت عرفت أنه لا حظّ لك في مثل هذه الأمور، وأنك لا

تصلح أبداً لجلب النقود.. خصوصاً بعد أن جربت مرة أخرى أن تبيع المثلجات المعبأة في (طرمز) صغير تعلقه على كتفك.. وقد طفت في ذلك اليوم من أول النهار إلى آخره دون أن تتمكن من بيع قطعة واحدة.. حتى وجدك أهلك جالساً قرب باب السينما وقد هدك التعب. ثم تعلمت نصب الفخاخ للعصافير، وتعلمت صناعة (المفاقيس) التي تصنع لصيد الزرازير والحمّرات، وصرت تنصبها هنا وهناك بين أحراش الغرب، وعلى أغصان الأشجار، وعلى سطح داركم..

وأول زرزور حصلت عليه حياً هو الذي أعطاك إياه سائق الشاحنة الصغيرة التي كانت تقلك أنت وأمك إلى ذيبان.. حين أوقف سيارته في الطريق بعد أن لمح رفاً كبيراً من الزرازير، فأخرج بندقية للصيد كان يضعها في جواره، وأطلق على الرف الذي سقط معظمه، ولم ينج إلا ذلك الزرزور الذي كان قد أصيب إصابة طفيفة في جناحه.. فرحت به كثيراً، وربطته بخيط، ولم تصدق متى يمضي الوقت لتعود به إلى البيت.. وطوال وجودك في بيت أبو غازي لم يرض الزرزور أن يتذوق أي شيء، ولا حتى قطرة ماء واحدة تبلل عروقه.. وعند عودتك وضعته في نافذة طينية محفورة في الحوش بالقرب من البايكة.. وتركت له القليل من الماء وبعض حبات من الحنطة، وثبتّ على النافذة قطعة بلاستيكية مخرمة.. ثم ذهبت.. كان المساء قد هبط، وكنت تراقبه كل حين.. حتى داهمك النعاس.. المهم غفوت..

وحين استيقظت في اليوم التالي تسلقت قضبان الشباك المعدني للاطمئنان عليه.. ولم تجد إلا نتفاً من ريشه الأسود الداكن.

حين سقط رفّ الزرازير بأكمله، وصار السائق الصياد يحفن الطيور بالعشرات، شعرت بغبطة غريبة.. وحين وجدت نتف طيرك الأكحل الداكن في ذلك الصباح حزنت كثيراً، ولم تستطع نسيانه لعدة أيام.

كانت الميادين تقفز من الصيف إلى الشتاء دون فاصل، فقد كان الخريف والربيع محض أسماء في دورة الفصول.. فما أن ينتهي الحر الشديد حتى يعقبه البرد القارس..

فالخريف هو بضعة أوراق صفر تتساقط هنا وهناك.. وتلون أخاذ للشجر على نهر الفرات، حين يتداخل القرمزي مع الأصفر الذهبي في الأفق المزروع على ضفة الفرات.. والربيع هو عدة سنتيمترات زائدة من العشب تراها قرب عين علي أو في الامتداد الشاسع للأراضي المحيطة بالرحبة، حين يسرق الأهالي أنفسهم عدة ساعات في سيران نحو البرية. سرعان ما ينتهي حين يعلن الشتاء عن قدومه بغيوم داكنة وزخات قوية من المطر، أو هطول صاعق لأسنان العجوز التي تقرع الرأس بقوة قبل أن تذوب في غدران الماء ومستنقعات الطين..

وفي البيت كان الشتاء أنغاماً مختلفة تحدثها نقاط الماء المتسربة من أسطح الغرف حين تتلقاها الطناجر والصحون

الموزعة في الغرف.. خصوصاً في الأيام الأولى من الشتاء حيث لم تكن الأسقف قد جصصت بعد.. والحقيقة أن نقاط الماء كانت غالباً ما تجد طريقها للتسرب داخل الغرف الدافئة.. حيث الجميع ملتف حول المدفأة التي تهدر من الصباح إلى آخر الليل.. وكنت تخوض في الغدران، وتتسكع تحت المطر ملتحفاً بمعطف الجوخ الرمادي، وقبل المغيب حين يكون الجو صحواً تذهب أنت ومصطفى ومروان الياسين وبعض أصحاب الحارة إلى الخربة المقابلة لبيت ناصر الجمعة.. توقدون ناراً، وتبدؤون بشي البطاطا والذرة.. وسرد القصص والحكايات.. وتعدون الخطط للدفاع عن الحارة، وتتفقون على الألعاب التي ستلعبونها بعد العشاء.. وكان مروان صياداً ماهراً بالنشاب، ووحده كان يعد أقواس النشاب وهي ما تزال أغصاناً على الشجر، حيث يقوم بانتقائها، وربط غصنيها المتقابلين بخيط قوي.. وينتظرها عدة أيام، ثم يقوم باقتطاعها، وتجهيزها، وبعد ذلك يمررها على النار كي تتصلب وتأخذ الشكل الملائم الذي يضمن له الدقة في التصويب.. وذات صباح خرجت معه إلى حويجة مناع في وقت باكر.. وقد ارتديت حذاءك البلاستيكي.. وبدأتما تخوضان بالماء والطين، وأنتما تمسحان بعيونكما أماكن العصافير، وتنصتان إلى زقزقتها، ثم تجران خيوط البلاستيك الذي ألقمتماه من الحصى المتكدس في جيوبكما، وتطلقان.

.. واحد، اثنان، ثلاثة.. وهاهي جيوبكم قد فرغت من

الحصى، وامتلأت جعبة مروان بالصيد الوفير، وها أنت خالي الوفاض وصفر اليدين.. لكن مروان لم يتركك خائباً، فأعطاك نصف الطيور التي اصطادها، جبراً لخاطرك..

ودعته، ودخلت المنزل.. توجهت إلى غرفة البايكة، ورحت تشوي العصافير على نار الغاز، وتلتهمها بعظمها ولحمها.

في مساء ذلك اليوم شاهدت ليلى أفعى صغيرة تدخل في جحر عند العتبة الأولى للدرج المفضي إلى غرفة أمل.. فهرعت إلى مروان وأخبرته بالأمر..

أحضر نشابه بسرعة، وانتقى حفنة من الحصى الناعم المتناثر على الطريق، ثم دخلتما البيت.. كان الجميع واقفاً قرب العتبة، فطلب مروان منهم الابتعاد، و إحضار خرطوم الماء، وتوجيهه إلى الجحر.. وما هي إلا لحظات حتى مدت الأفعى رأسها الذي بوغت بحصاة انطلقت من نشاب مروان كطلقة مسدس، وفجّته فجاً، فتهلل الجميع بالفرح، وأطلقوا صيحات الإعجاب لتسديدته الرائعة.. لف مروان نشابه، ودسه في جيب بنطاله.. نظر إليك، ثم غادر المنزل مزهواً كالبطل.

.. بأي فضاء تحدق يا صاحبي؟.. بأي فراغ تتملى؟.. وأي كلام يتمنع على هذه الصفحات الخرقاء.. وأنت تراهن على قلب مثقل، وذاكرة تختزن الرائحة فقط والأحاديث التي اشتعلت ذات طفولة واحترقتَ بها؟.. ومن يعيد إلى الطين رائحته.. وإلى الدنيا نَفَسها؟.. كيف تكتب خصلة الشعر

المحناة على جبين أمك وهبريتها المعصوية على هالة النور؟..

كيف تكتب سيرتك وبها أنين لا تقوى الأرض عليه لأشخاص مضوا صامتين دون أن يفطن إليهم أحد أو ينصت إليهم أحد؟.

لكنها خطوط عمرك تنفلت هكذا، وتتشابك في حارة طينية قديمة على أضواء خافتة وسحنات معجونة بالهم والقهر.. وألعاب طفولية تلعن الدنيا كلما عادت إلى الذاكرة..

وكان يا ما كان.. في قديم الزمان قطة مدت يدها في الغار، فتحنت ورفعت عينها إلى السماء، فتكحلت.. وكان يا ما كان.. كلب مد يده في الغار، فلدغت، ورفع عينه إلى السماء، فعميت.

وكان يا ما كان.. قطة تخبر الحائط عن الكلب الذي تخشاه، فيخبرها الكلب عن العصا التي يخشاها، وتخبره العصا عن النار التي تخشاها، فتخبره عن الماء الذي يطفئ النار وينبت الأشجار.. وهكذا أيتها الدائرة الدائرة.. هكذا أيتها الحكاية التي انطفأت على فم أمك حين فرغت الحياة من نفسها، واندثرت.



(٣)

أدراج دمشق



دمشق.. صباحاتها الباردة وزحامها الشديد.. الركض خلف الباصات المهترئة.. والبيت المحشور في أحد أزقة اليرموك، الوجوه العابرة والنساء العابرات، الليالي الطويلة وآلة الأكورديون الصاخبة.. الجيتار الخشبي.. قناني العرق والأغطية القذرة.. أبو نبيل مالك البيت الكريه بكرشه المندلق وساقيه القصيرتين.. سينما النجوم وأفلام الأكشن.

والوقوف أمام المرآة في الصباحات الذاوية، فارغاً من نفسك وغائباً..

ما الذي تراه؟.. فمك المنقبض.. عينيك الشاردتين والهالات الزرقاء التي تظللهما.. جبينك والندب الذي ارتسم عليه.. شعرك المنكوش.. سحنتك الشاحبة؟.

ما الذي تنظر إليه ولا تراه؟.. تحدق في أغواره فيتلاشى؟.. تحيط به فتبتلعك ظلمته؟.. كأنما تمسك الجحيم بأصابعك الباردة.. تتبدد حزم الضوء من المرآة.. تتلاشى دمشق، يغيب شارع المخيم، موقف الجسر.. الباب الأزرق المعدني.. وترن في المدى ضحكة رجاء.. ترتشح ابتسامتها الساحرة من العتمة الموحشة.

كأنما دمشق لا وجه لها.. مرآة تنعكس فيها الوجوه والبواطن، وتذوب فيها الحجارة والأرصفة. تسير بلا هدى.. تلتفت يميناً.. ثمة مدينة خلف المدينة.. تلتفت يساراً.. ثمة وجه يختزل تفاصيل الأرض..

الجيتار الخشبي مركون منذ أيام في مكانه، و(أمير) يجر أكورديونه فوق رأسك المصدوع.. (كاسر) غائب عن البيت منذ أيام في قطعته العسكرية.. ورسوم (ماري) حبيبته الوهمية تملأ الدفاتر والجدران.. (أبو حسين) في غرفته يلتهم البطاطا بكميات هائلة، وينام وهو يلف ساقاً على ساق.

والعديد العديد من الضيوف الذين يملكون مفاتيح للبيت، ولا يعرفهم أحد..

.. سمير الذي مر أخوه على البيت منذ سنوات بصحبة أحدهم، فعرج بعدها لقضاء فترة خدمته الإلزامية فقط.. وخليل الذي جاء لتناول فنجان من الشاي استغرق ستة أشهر في ارتشافه، أمضى منها ثلاثة أشهر على الأقل أمام المرآة،

والثلاثة الأخرى أمضاها في التأتأة والثرثرة في مواضيع لا رأس لها ولا مؤخرة.. عدا عن تشكيه الدائم من مغامراته العاطفية الفاشلة، ودخوله الغريب في طقوسه الخاصة في كتابة الشعر.. حين كان يحضر عدداً كبيراً من المجموعات الشعرية، ثم يبدأ بقراءة متلهفة لها، وسرعان ما تتفجر موهبته خلالها، وتتجلى لحظاته الإلهامية الخارقة.. وبعد العديد من القصائد البكائية الفاشلة وسخرية محمود عيادة الدائمة له قرر التوقف عن كتابة الشعر والالتفات إلى الجانب الفكري. فقد كان محمود يعرج على المنزل كل مساء، وكلما رأى خليل ممسكاً بكتاب شعر.. كان يعتلي الطاولة، ويأخذ بإلقاء جمل اعتباطية مقلداً (خليل) في طريقة إلقائه، فيأخذ الجميع بالضحك، ويغالون فيه إمعاناً في السخرية، حتى يتفجر خليل غيظاً، وينهال على محمود بعبارات مقطعة على الطريقة العروضية نظراً لتأتأته وتوحده مع الحالة الشعرية.. ولم يكن ينتهي العرض حتى يهبط محمود من منصته بعد أن يفرغ من هجائياته الساخرة.

والحقيقة أن لا شيء أكثر إيجاعاً من محاولاته الجادة والحثيثة طوال تلك الفترة في إقامة علاقة مع أية امرأة عابرة أو مقيمة في إطار محيطه الجغرافي.

لكن أحداً لم يستطع إفساد علاقته الوثيقة واللصيقة بالمرآة.. فمن يستيقظ أولاً سيجد خليل مسمراً أمام المرآة يقلب خصلات شعره الأجعد، ومن يودّ النوم سيطلب من خليل

أن يطفئ الضوء ويبتعد عن المرآة.. ومن يصل أولاً سيجد خليل بالتأكيد فـي استغراقه المعهود بالمرآة.

* * *

رائحة العفونة عالقة فـي المنزل، ومتعشقة مع رائحة الدخان والعرق، ومع الرائحة القاتلة لجوارب كاسر التي تسببت بهروب العديد من المستأجرين الجدد.. والكارثة الكبرى أن كاسر كان أحياناً يترك جواربه معلقة على حبل الغسيل لتجف دون أن يفطن إلى غسلها.. فالأرق وحالات الاكتئاب الطارئة غالباً ما تكون بسبب تلك الرائحة.. والحقيقة أن حذاءه العسكري كان كافياً وحده لإحداث صداع مزمن.. كما أن الروائح التي يخلفها كانت عالقة فـي جميع الأسرّة، إذ كان ينام فـي أي سرير يراه شـاغـراً وفـي أيـة غـرفـة... والـغـريب أن مـن يـأتـي أول مـرة ويستطيع احتمال الدقائق الأولى كان يدمن الحضور فيما بعد.. فـقـد كـان المنـزل مـزدحـمـاً عـلـى الـدوام.. نسـاء، شـعـراء، وفنانون.. عاطلون عن العمل.. عساكر من مختلف الرتب.. مجانين، ومهووسون.. رجال يعملون بالسياسة، وفوضويون من الطراز الرفيع.. وغالبا ما كان الصباح يطلع على أغنية عالقة بين غيتار كاسر وأكورديون أمير، وبين العرق الذي لا ينفد. طبعا جميع من سكنوا المنزل حاولوا أن يتعلموا على إحدى الآلات، لـكـن لم يتـمـكـن أحد مـن مجاراة خـلـيـل فـي بـداهـتـه الموسيقية.. فقد حاول أمير في إحدى الأماسي أن يدربه على السلم الموسيقي، ثم فوجئ به فـي صباح اليوم التالي مصراً

على إيقاظه من نومه الثقيل، ليسمعه سمفونية قد ألفها، وأداها بعود الكبريت بدلاً من الريشة.. المشكلة أن أمير لم يتوقف عن الضحك سنوات طويلة كلما خطر على باله خليل ومواهبة المتعددة وبالتحديد تلك المقطوعة الموسيقية الرائعة.. وفيما بعد لحق أمير بخليل للسكن معه.. بعد أن حزم هذا الأخير حقائبه ومصائبه وغادر عندما رفضتَ أن تتخلى له عن رجاء.. لقد طلب إليك التخلي عنها، مع أنك لم تكن قد التقيتها من قبل .. لكنك أخبرته بأن لرجاء حق الاختيار بينك وبينه على الرغم من أنك كنت مسافراً حين جرّت هويدة قدم رجاء إلى المنزل.

ثم تلقى الضربة القاضية حين عاد ظهيرة اليوم التالي، فوجد الغرفة مغلقة عليكما، وقد استطاع لرهافة سمعه أن يلتقط بعض الهمسات الخافتة والأصوات النائسة تنبعث من الداخل.

في ذلك اليوم ارتشف خليل آخر القطرات من فنجان الشاي الذي ابتدأه منذ أشهر عديدة، إلا أن مذاقه كان أشد مرارة من أي شيء عرفه من قبل.

* * *

رجاء كانت أولى الصبايا اللواتي التقيتهن في دمشق.. وابتسامتها كانت أول شيء أثر فيك.. بشرتها صافية، وصوتها عميق ودافئ.. عيناها داكنتان تتقدان بالشهوة.. وفمها كان

مرتعشاً حين نطقت باسمك لأول مرة.

كان صباحاً شتائياً بارداً استيقظت فيه على قرع الباب، وكان المنزل خاوياً..

فتحتَ الباب..

ثم تأملتك قليلاً.. وسألتك.. أنتَ اسماعيل.. أليس كذلك؟.. لقد سمعت عنك..

و أنتِ رجاء..؟

ابتسمت، وكان وجهها مكسواً بحمرة البرد.. هل جاءت هويدة؟.. اتفقنا أن نلتقي هنا.. ستأتي بعد قليل.. تفضلي.. وبالتأكيد.. كنتما تعلمان أن هويدة لن تأتي في مثل هذا الوقت الباكر، وكانت رجاء قد اختصرت طريقها إلى المدرسة، وقرعت بابك.

الغرفة رطبة وباردة، أوقدتَ طباخ الغاز.. وضعته بينكما.. جلست قبالتها.. امتدت أياديكما إلى شعلة النار.. شاع في الغرفة هواء ساخن تغلغل في العظام. وبعد عدة عبارات قصيرة، تناولت فمها المكتنز بقبلة متعطشة.

بعد ذلك تكرر هروبها الصباحي من المدرسة.. وتوقفت عن الذهاب إلى الكلية.

كانت رجاء توحي بالغموض، منغلقة على مشاعرها، وكأن ثمة أسراراً تؤرقها.. كانت تشعر بالضيق حين يصبح الحديث

شاعرياً، فتقول..إنني لست بالصورة التي تتخيلها.. وحين أسمعتها مقطعاً شعرياً عنها.. طلبت منك أن لا تفعل ذلك، وهي تكرر أنها لا تستحق هذا الكلام..

ولم تمهلك وقتاً كافياً لتتكشف على روحها وعلى خباياها، حتى توقفت نهائياً عن الحضور.

.. هكذا مضت دون كلمة وداع واحدة.. هكذا تركت رائحتها على السرير.. وتركت ابتسامتها على المرآة وهي تستدير نصف استدارة وتلوح بيدها وتمضي.

هل حملت قبلاتك طعم المرارة التي كنت تشعر بها؟.. هل رسمت لمساتك المرتعشة خطوطك الخائبة وأنت تتخبط سدى على جسدها المصقول كالرخام؟..

هل كان لعرقك رائحة الفرات.. أم رائحة أسير يركض في الحلم واليقظة دون جدوى؟..

لم تخط خطوة واحدة في حواري المخيم دون أن تشعر بالتيه، محاولاً التملص من نفسك، ومن تلك الكيمياء التي تسري كالدبابيس في خلاياك.. كنت تشعر نفسك ملعوناً، وكان إحساس بالمرارة يغلي تحت لسانك.

بعد أيام عاد كاسر من مناوبته، فأخبرته بما حدث.. لم يبد أي رد فعل.. فقط ابتسم.. ثم تناول جيتاره وقال.. انتظر سأسمعك مقطوعتي الجديدة.. ثم بدأ بالعزف..

خمس علامات موسيقية فقط، بأزمنة مختلفة، مع أوكور ناعم يرتكز على اللا، وآخر على المي.. خمس علامات موسيقية فقط ليستفيض قلبه بكل هذا البوح.. وتستفيض بكل ذاك البكاء.. كانت ساحرة وبكائية.. كانت موسيقى تتوسل حلماً ما أو امرأة ما.. تشبه اعترافا ما أو كلاماً أخيراً تقوله.. ثم تمضي.

وضع جيتاره جانباً، ونظر إليك، وراح يتحدث.. كنتُ مخموراً يا اسماعيل.. وكنتُ وحيداً آخر الليل على قمة جبل من جبال بيروت.. قطفت بعض أوراق من شجرة كينا، ولففتها كما تلف سيجارة الحشيش، ورحت أدخن.. كان لها فعل مخدر.. دخنت عدة أوراق قبل أن أتناول جيتاري.. آنذاك خرجت هذه المقطوعة التي عزفتها الآن.. ما رأيك؟.. أليس لها رائحة كينا انتشرت على امتداد الليل عند شرفة ضوء فضي لقمر لم يكتمل؟...

* * *

بعد انتقال أمير للسكن مع خليل توالت الطرائف التي كان يحضرها إلى المنزل في زياراته المتتالية، فلم يكن يطيق الانتظار دون الإخبار بجديده اليومي.. ولعل من أطرف النوادر حكاية خليل مع جارته الأرملة التي كانت تسكن في شقة تطل على البيت الذي استأجره.. في بداية الأمر كان خليل قد لمحها لمحة سريعة، فوقع في هواها على الفور.. ثم تقصى عن الأمر فعلم أنها أرملة، فجن جنونه، ولم يطق صبراً كي يلفت نظرها

إليه، وإلى مواهبه الكبيرة.. لكن المشكلة أن سقف المطبخ كان يحجب الرؤية عنه، فلم يترك سنتيمتراً واحداً من منزله دون أن يجرب فيه زاوية النظر، وللأسف لم يصل إلى نتيجة.. حتى خطرت له تلك الفكرة الجهنمية التي يستطيع من خلالها أن يتجاوز حاجز الرؤية.. فعرض الفكرة على أمير الذي بادر على الفور بمساعدته وهو يتقلب من الضحك.

والفكرة بكل بساطة هي أن يتسلق السلم الخشبي مع عدته الثقافية إلى سطح المطبخ، ويعسكر هناك.. فساعده أمير بنقل الطاولة والكرسي، وحمل خليل بنفسه عشرات الكتب التي وضعها جميعها على الطاولة.. وبدأ بترتيب مقره الاستراتيجي الجديد.

وصار ناصر يصعد وينزل كل يوم عشرات المرات، ويجلس هناك لمتابعة قراءاته، وكان يضع نظاراته الطبية عند منتصف أنفه، ويتظاهر بالقراءة، بينما عيناه شاخصتان إلى الأعلى قدر ما تستطيعان.

لقد كانت طريقة خليل في القراءة كطريقته في كتابة الشعر، إذ كان يفرد جميع الكتب على الطاولة بالجملة، ويبدأ بقراءة متقطعة وبالتقسيط من هذا الكتاب ومن ذاك، جملة من هنا وفاصلة من هناك، وهو يقلب عيونه على صفحات الكتب جميعها دفعة واحدة.. ثم حدث ما لم يكن في الحسبان.. فقد أيقنت تلك الأرملة الشابة أن هذا الجار الجديد الذي يمضي معظم وقته في القراءة وبمجموعة واسعة

من الكتب لابد أن يكون أحد المفكرين الكبار أو الأساتذة المنهمكين في ابتكار نظريات كونية معقدة قادرة على إنقاذ العالم، ولابد أن يكون قادراً أيضاً على حل مسألة الرياضيات التي استعصت على ابنها الذي يدرس في أحد صفوف المرحلة الابتدائية، فقررت أن تستعين بجارها وبقدراته الواضحة بجلاء.

فما كان منها إلاّ أن توجهت إلى منزله، وقرعت بابه.. هبط خليل درجات سلمه الخشبي متذمراً من ضيفه الطارئ.. فتح الباب، فأصابه الذهول حين رأى جارته بلحمها وشحمها تقف أمامه.. وسرعان ما صعق وكاد أن يتوقف قلبه حين مدت له كتاب الرياضيات طالبة منه أن يحل لابنها الوظيفة.. وظيفة الرياضيات.. طوت له الصفحة المطلوبة، وأخبرته أن ابنها سيعود في اليوم التالي ليأخذ الكتاب.. ثم شكرته سلفاً على وقته الثمين الذي سيضيعه على أمور بسيطة كهذه، و.. غادرت..

ظل خليل لدقائق مذهولاً ومذعوراً.. دارت به الدنيا وكاد يقع أرضاً وهو يفكر كيف بإمكانه الخروج من هذه المعضلة.. فحل مسألة رياضيات بالنسبة له هو بحد ذاته أكثر صعوبة من إقامة علاقة مع امرأة.. أية امرأة كانت.

ودون تردد وعلى عجل تأبط كتاب الرياضيات، وأغلق خلفه الباب، ثم ذهب مهرولاً حتى اقتحم منزل درغام، ووقف أمامه وهو يلهث ويتأتئ.. ناوله الكتاب، وأشار له إلى الصفحة

المطوية.. أ.. أب.. أبو الدر.. أرجوك أن.. أن تنقذني، وتحل لي م.. مسألة الرياضيات هذه.. وتخلصني من هذه المصيبة..

ثم حكى لدرغام الحكاية كاملة، فانفجر بالضحك.. ولم يتوقف هو الآخر عن سرد الحكاية حتى الآن.

أكثر الأماسي التي كان الشباب يجتمعون فيها كانت تتناول أفلام خليل ونوادره، خصوصاً حين يجتمع درغام مع أمير وكاسر في وقت واحد، على الرغم من أن درغام كان قد عانى الأمرين من خليل، حين سكن عنده عدة أيام، وقد وصل به الأمر إلى حد لا يطاق، فطرده من البيت.. وآنذاك شعر خليل بإساءة كبيرة، فحزم حقيبته على الفور، وانتقل إلى الغرفة الثانية التي كان يقطنها إسلام أبو شكير صديق درغام وشريكه في السكن والذي لم تكن تربطه بخليل أية علاقة.. فكاد أن يجن جنونهما على صفاقة هذا الضيف العجيب والبالغ الحساسية.

بعد عدة أيام من انتقال خليل للسكن مع إسلام، اتفق مع أمير على أن يبحثا عن بيت مشترك، خصوصاً وأن أمير لم يعد قادرا على الاستمرار مع الرائحة القاتلة لجوارب كاسر، ومع الفوضى الدائمة التي يتسبب بها.. وهكذا انتقل للسكن مع خليل، إلى أن جاء أمير آخر مرة مع حقائبه قائلاً.. أخي.. لم أعد أحتمل..

كان خليل بالغ النحافة، وحين كان أمير يود الإشارة إلى

خليل.. كان يرسم في الهواء خطاً عمودياً ينصفه بنقطة، وقد كان كافياً أن يرفع أمير إصبعه حتى ينفجر الجميع بالضحك، فيبتدئ حينها مسلسل خليل الذي لا يتوقف.

.. وكان أمير دائم الحديث عن مشاريع عملية جديدة كانت تنتهي دائماً بالفشل.. في الوقت الذي يمضي فيه كاسر بتأليف أغان عن ماري.. وكتابة رسائل الحب للعشاق الذين يمرون على المنزل بقلوب خافقة وعقول فارغة..

و كان كاسر يضع في فمه عود ثقاب على الدوام.. ويدخن حمراء قصيرة، وفي الوقت نفسه كان لا يكف عن الحديث عن سيجارة الجيتان ورائحتها الخاصة.. وكان يرسم للجميع خطط الوصول إلى القلوب بأقصر الطرق، في الوقت الذي أمضى فيه خدمته الإلزامية دون امرأة وهو يعلل الأمر بإخلاصه لماري.. تلك الشقراء المسيحية التي كانت تعمل معه فيما مضى بأحد مراكز الصحة في دير الزور.. وكان البعض يعتقد أنه إن كان ثمة ماري فإنها بالتأكيد لم تكن تعلم مطلقاً بوجود عاشق متيم اسمه كاسر.. المقطوعات الموسيقية الناعمة التي كان كاسر يصفرها مرتبطة دائما بماري، وبكيفية جلوسه عند نافذتها في أواخر الليالي الشتائية الباردة.. وإطلاق موسيقاه التي تتسلل إلى عتمة غرفتها، وتضيء نافذتها المشرعة على عشقه المستحيل، بين مسيحية من أسرة متشددة ومسلم بائس.. وما بين ماري وعبير ورجاء وهويدة ومنى.. و..
و. كانت القصائد تكتب على مشارف الفجر، وتتلى في

المساءات، ويتناقلها الآخرون في رابعة النهار كقصائد تفتقت عنها قلوبهم الهائمة.. أو رسائل يستعيرونها لملء الأسطر التي تفصلهم عن لقاء حميمي في إحدى الغرف الخانقة في أزقة المخيم.

في تلك الأيام كانت الأمور مختلطة ومضللة.. المراهقة بالرجولة.. الشعر بالقصاصات الساذجة.. المرأة بالسحر.. حتى أنك بقيت طويلاً تتحدث عن رائحة رجاء الخالصة التي تفوح من جسدها والتي تشبه إلى حد كبير رائحة الياسمين.. أو عن ياسمينها الذي لم تكف عن تنشقه في الحلم واليقظة، إلى أن عرفت فيما بعد أنها رائحة عطر شائع جداً في ذلك الوقت.

وكانت الهرولة خلف الباصات، أو الانتظار الطويل في المواقف على أمل أن تبصر دخاناً قادماً من بعيد يحملك على صاجه المهترئ إلى موقف آخر تنتظر عنده حافلة أخرى تنقلك إلى كلية الفنون، لتتلقى دروسا سيئة في الفن.. أول الأمر كنت مواظباً على الدوام كحال أي طالب يحمل في جعبته علبة ألوان خبأها سنين طويلة في خزانته دون أن يغامر باستخدامها.

الأيام الأولى كانت محاولة لتفحص ما يحدث.. نظرة على ما يجري في الأعماق السحيقة لقروي حلم بما حلم ذات طفولة، وعلى ما يحدث ها هنا الآن.

.. على القلب المنكوش والشعر المنكوش.. وعلى وجه أمك

الملفوح بنار الترمل والفقر.. وحارتك الملفوحة بالوجوه الطيبة.. وعلى دمشق المتوارية خلف زينتها.

وفي اليوم الأول الذي تعرفت فيه على أيمن خرجتما سوية من الكلية.. وسرتما على طول شارع بغداد، وأنت تغني بصوت عال دون أن تعبأ بأحد.. كان أيمن يراقبك وأنت ترفع بصوتك أكثر وأكثر.. ثم انفجرتما بالضحك سوية.. وقد أخبرك أيمن في ما بعد أن ذلك المشوار لعب دوراً حاسماً في تعميق صداقتكما خصوصاً أنه انتهى بتناول وجبة دسمة لم يتذوق مثلها منذ زمن طويل على حد تعبيره..

ثم تعرفت على أصدقاء جدد من قرى وضياع ومدن مختلفة.. جاؤوا ليدرسوا الفن.. كل يحمل في روحه توقه الذي بددته دمشق وكليتها الجميلة.. شبيب، هشام الغدو، فادي، برهو، جهاد، وآخرون سقطت من أياديهم أزاميلهم أو أقلامهم وهم يحاولون التقاط ملامح واضحة لدمشق أو تصوير صباياها الملونات... وكان هشام يشكل بصلصاله نماذجه الساخرة، أو يتندر بقصص الصيد وابتكاراته التي ابتدأ بتصنيعها منذ أيام الإعدادية في مدرسة أبناء الشهداء، أو السبطانة الخاصة والطلقات الخاصة التي صنعها لصيد بعض الطيور النّكورة، حين جرب إحدى طلقاته على طير من طيور البط في رحلة من رحلات صيده الظافر.. فعندما ضغط زناده.. دوى صوت انفجار هائل.. وهاجت عاصفة ترابية جعلت الأرض تفور تحته بعد أن قذفته البندقية عدة أمتار إلى

الخلف.. ولما استفاق من صدمته، وزال الطنين من أذنيه، نهض على ساقيه، ومضى بخطوات مترنحة ليرى ما الذي حدث لطيره المسكين.. وبعد أن عثر عليه وجده ميتاً، وقد كان متخشباً في مكانه، فقد قتله صوت ذلك الانفجار المرعب دون أن يمس ولو بشظية صغيرة من شظايا طلقته المبتكرة.

كانت الكلية حشداً متناقضاً من موهوبين وموهومين وطلاب قادمين من أبو رمانة وآخرين من أحياء المخيم والحجر الأسود.. شباب صاخب وأبله.. حالمين وعاطلين عن المخيلة.

برهو بلفحته الحمراء وريشته الأنيقة.. وشبيب بألوانه الساحرة.. جهاد بمطاردته الدائمة للمتوحدات.. وأنت بالقصيدة التي لم تكتمل، واللوحة التي لم تكتمل، والحياة المائسة بين رائحة الحارة القديمة وعفونة المخيم.. بين السماء السابعة والدرك الأسفل.. متأرجحاً هكذا بين امرأة تلبسها حلمك عنوة.. وأخرى تعري شهواتك المكبوتة.

ليلى بالنمش الناعم على بشرتها القمحية.. بأحلامها الشفيفة، وقلبها الرهيف، ومظلتها القزحية.. وامتثال بعينيها الخضراوين ومشيتها المتهادية..

مناهل بشبقها الدائم، ونبيذها اللذيذ.. وهيلانة بقبلتها الحارقة، وفمها المنفرج..

وأيمن كان أول الراحلين لم يستدل إلى قلب امرأة.. كان طافحاً بالحب دون موعد سري مع عاشقة تنصت إلى قلبه..

وكان طافحاً بالحياة حين اختطفه الموت.

وأيمن كان من ضيعة جبلية على شرفة البحر، وكنت قد زرتها بعد أشهر قليلة من نشوء الصداقة بينكما.

وكان صعود درب الضيعة في تلك المرة، أشبه بالصعود إلى أرض الحلم.. المشاهد ساحرة، والقمر هناك لا يشبه القمر في أي مكان آخر.. كان يمسح بفضته البيوت الحجرية، بينما يؤجج الريحان سكينة المكان.. الأشجار متداخلة، والشوارع متعانقة وهي تلتف على بعضها بعضا.

أفرغتكما شاحنة على مقربة من المنزل.. إذ وصلتما جبلة في وقت متأخر، وكانت المواصلات قد توقفت إلى الضيعة حتى حملتكما تلك الشاحنة على ظهرها..

كنت مأخوذا بضوء القمر وهو يفيض برقته على البيوت الواطئة أو المرصوفة على قمة جبل تنبعث من مسامه أضواء خافتة. كانت تلك هي المرة الأولى التي تذهب فيها إلى ضيعة جبلية بعيدة لم تهتك المدينة طهارتها..

أشار أيمن إلى منزله الواقع أسفل الشارع الذي ينحدر بشدة.. وطلبت منه أن تنزلا إلى البيت كالطيور.. ثم أفردتما أياديكما وأشرعتما قلبيكما.. وانطلقتما بأقصى ما تستطيعان وأنتما تصرخان بأعلى صوت.

بعدها توقفتما لالتقاط أنفاسكما قبل أن تدخلا البيت كطالبين جامعيين محترمين. تلك الليلة خصك أبو أيمن رحمه

الله بألفية من عرق التين أتيت على نصفها وأنت تستشعر نشوة تتنامى داخل رأسك الذي سكنه صفاء لم تشعر به منذ سنوات عديدة.

في فجر اليوم التالي استيقظت وقد اتسع صدرك لاستنشاق المكان برمته.. خرجت إلى الفناء.. كان بعض ما تركه القمر ما يزال عالقاً على شرفات البيوت وأطراف الشجر، وكان النسيم مايزال ندياً.

ثم تعلق قلب أيمن بقريبته لثلاث ليال دون أن يفصح لها، وتعلق قلبك بكل الفتيات اللواتي وقعت عيناك عليهن. فالمكان يفتح الشهية للحب.

* * *

دمشق لا وجه لها.. فما بين ساحة التحرير في باب توما وساحة النجوم في المخيم ثمة عوالم طارئة تفيض عن الحاجة.. الوجوه الصافية والبشرة الندية.. الوجوه الكالحة التي تختبئ خلف ملاءات خانقة.. الشوارع الواسعة والحدائق الخلفية للمنازل.. الأزقة الضيقة بمنازلها المشيدة دون نوافذ.

.. شتاءات دمشق.. غدران المخيم.. صيف دمشق.. رائحة العفونة والحر الخانق.. نساء دمشق والعبور من خيبة إلى أخرى.. ثمة ملامح أخرى تنمو على وجهك.. وأماكن قصية تتلوث في روحك.. كوابيس تعاود الحضور وأحلام تتبدد.. فما تعلمه الصبي في حاراته الطينية، وما رسمه على الجدران

الطينية المائلة، لا مكان له هنا.. وما حلم به الصبي على سرير صباه، تبدد في صباحات دمشق المحمومة....

أصدقاء لكأس واحد في خمارة الفريدي التي تغص بالمثقفين العاطلين عن العمل والشعراء العاطلين عن القصيدة.. حياة بالتقسيط، وموت دفعة واحدة، ونقود بالقطارة، وما يأتي به الليل يذهب به النهار..

والمخيم سلة خضار بائتة، تنقب فيها كل صباح فلا تجد إلا ما تركته في الأمس.

* * *

ما الذي يفوح من تلك السنديانة القديمة المزروعة في مؤخرة الرأس؟.. ما الذي يفوح من تلك الحارات الخانقة التي وجدت هكذا ذات صباح مزروعة في كتف دمشق متداخلة وضيقة ومغلقة على الشمس؟.. رائحة الأنفاس والعرق المتكاثف على النوافذ الواطئة التي لا تبصر إلا نفسها، والعطور التي تخبئها النساء لمواعيدهن.. رائحة السجائر والخمرة الرخيصة والحشيش.. ودرفات الشواء المتناثرة هنا وهناك.

كنت تعب الهواء بنهم، وتنقل الجيتار من كتف إلى كتف.. تستريح على مواقف الباصات، وتعزف المقطوعات التي لم تتعلم غيرها.. وكاسر يصفر ألحانه البديعة، وينقل عود الثقاب العالق في فمه من طرف إلى آخر.. كانت الأوقات المتأخرة من الليل تثير في أرواحكم التوق إلى عوالم

تصنعونها، وتطوفون بها، ثم تتركونها للصباح يفعل بها ما يشاء..

مقطوعة الخيول التي تحدث عنها كاسر مطولاً وكتب عنها دفاتر من الرسائل التي أرسلها هنا وهناك، كانت جامحة وعذبة ورشيقة.. علاماتها الموسيقية متداخلة، وأزمانها قصيرة وسريعة.. عزفها كاسر للمرة الأولى على أكورديونه المهترئ، فجن المساء، وصهلت خيول برية على اتساعه، ودفع بك انتشاء إلى البكاء.. تماماً كما فعلت بك مقطوعة ماري.. إلا أن مقطوعة الخيول تلك كانت مزيجاً من العاطفة الدافئة ومن الجنون الهائج.. كانت نزيفاً مريراً وصراخ حنين.

كيف أتيت بهذه الموسيقى يا كاسر؟.. وما الذي فعلته بها بعد هذه السنين حين أسندت جيتارك على جدار الصمت وانطفأت؟..

كان كاسر غزيراً جداً، ومتنوع المواهب، وساكناً في الوقت نفسه.. وكان يمضي الليالي الطويلة عاكفاً على الكتابة، ولا نصّ لديه.. يتحدث عن مشاريع إبداعية كبيرة عن روايات وقصص وأشعار.. وكان يكتب ويكتب دون أن تعثر في جعبته على أثر متكامل.. وموهبته فريدة وفذة، إلا أنه لم يجد طريقه إلى نتاج مثمر.. وكان عازفاً ماهراً على أغلب الآلات الموسيقية، إلا أنه صمت تماماً.. وفي أيام ألقه كان يشي بالكثير.. يتحدث عن عوالم غريبة بمنتهى الفتنة، ويحلق في مخيلته إلى شرفات الجنون..

كانت أيام.. حين تقاسمتما غرفة المخيم وهواجس الإبداع والحائط الذي كنتما ترسمان عليه لوحة جديدة كل يوم.. بالأصابع والأيدي.

أيام هستيريا الضحك.. وهستيريا الكتابة.. وهستيريا الأحلام..

كانت الأرض بكراً، والروح بكراً.. لكنه الزمن أفصح عن خباياه.. وأفرد خياراته.. وهات ما لديك أيها العابر.. وهاتي ما لديك أيتها الأيام.. وجهاً لوجه أيها الحلم.. وجهاً لوجه أيها الزمن الضاري.

.. نقرة خفيفة على القلب وينكسر.. قال.. فأجبته.. لذا ادخلي بعنف.. نعم.. نقرة خفيفة على القلب وينكسر.. حين قال عبارته تلك كنتما في منطقة المزرعة في طريقكما إلى (عمر) الدمشقي الشاذ الذي حاول غواية أمير في إحدى سهرات الطرب والموسيقى.. وعمر ذاك.. موسيقي بارع.. يرأس فرقة من أشباهه.. تزوج في اليوم الأول، وطلق في اليوم الثاني، فقد كانت النتيجة واضحة لديه:

- المرأة ليست سوى كائن فائض عن الحاجة.. فاختصر طريقه، وحدد أهدافه في الحياة.. رجال وسيمون.. موسيقى.. خمرة فاخرة.. وأوقات قليلة لنسخ لوحات من الطراز الكلاسيكي.. ولا شيء آخر..

ودمشق هي الليل.. حين يركن الضجيج إلى نفسه.. وحين

تتألق نجمة قاسيون.. ويعود درغام إلى قصيدته.. وتتعرق رجاء تحت غطائها..

دمشق هي الليل حين ينتابك الشعر، وتطاردك القصيدة من امرأة إلى أخرى، وتتنفس حلمك الذي صحوت متأخراً على انقضائه.. ودائماً ثمة أصدقاء جدد، وقصائد جدد، ونساء يبزغن في أواخر الليل، وينطفئن في أول الفجر.

.. أكاد أموت.. ويقسم كاسر أنه غسلها جيداً.. ويشهق بالضحك..

وكان خليل ينطق فجأة بآراء تنم عن فلسفته العميقة في الحياة، فيصاب الجميع بالذهول، فيطمر رأسه بالفراش، ويأخذ أمير برسم إشاراته الدالة التي تختزل هيئته الهزيلة. وأبو حسين لم يخلع جواربه قط أثناء نومه، ولم يتوقف عن هرش رأسه.. يتحدث دائماً عن بعثته التي دامت لأشهر ثلاثة، وعن زوجته الرومانية التي امتنعت عن المجيء معه..

إحساس بالوخز الدائم والغثيان.. ومزاج كئيب لا يمكن التغلب عليه إلا بالمشروب.. فمع الصباح كانت قنينة العرق تفتح، ومع الظهيرة يصعد الخدر إلى الرأس، ومع انصراف الشباب من ثكناتهم يكون مزاجك قد اعتدل، وترتفع حاسة الشعر لديك، ويصبح لنقرات الجيتار وقع أجمل..

ودائماً كان ثمة خربشات وكتابات ورسوم..

أعواد الثقاب المعلوكة التي يخلفها كاسر، وقشور البطاطا

التي يخلفها أبو حسين، ونظرات الغيظ التي يخلفها أمير، ورائحة الياسمين التي تخلفها رجاء.. وأنت ترفع الكاس بصحة السأم..

ثمة مسامير مغروسة في الروح ما زالت تعكر صفو الصباحات، وتنتهك أيامك لحظة لحظة.. وقد تبقى حتى تضع الروح رحالها، وتغادر طينها وتمضي.

ثمة نزيف يا فواز قادري لم ينجح الشعر بإيقافه.. غير أنّ الروح رقّت أكثر، والحلم ابتعد أكثر، وأصبحت موسيقى الكمنجة تلك محض صدى، وأصبحت الأيام محض ساعات ثقيلة.. وغير أن الأصدقاء مضوا.. والغرفة التي كتبت أشعارك على جدرانها انهارت.

ثمة متسع من العمر يا عواشة، لكنه المرض الذي كان خاطفاً..

وثمة متسع من الحياة يا أيمن، لكنها حكمة الهباء.. أن تغادر هكذا بنصف ذاكرة وقلب مكتمل وحياة طازجة.

فالعمر لم يمنحك فرصة لتكمل القصة التي ابتدأتها، أو لحظة فائضة عن الزمن الخاوي لتستمع إلى اعتراف المرأة التي أحببتها.





(٣)

أدراج السماء

إغفاءة قليلة لمدة خمس دقائق كانت كفيلة بأن تقلب العالم رأساً على عقب.. الستارة المرتخية على امتداد النافذة سمحت بضوء قليل استرخى على وجهك المتعب.. وثمة أشياء اختلفت إلى الأبد.. ولم تدر أن الدنيا تداعت هكذا بلحظة واحدة.. دون إشارة سابقة... هل الحياة هشة إلى هذا الحد؟.. وهل كان ينبغي أن تصاب بتلك الفاجعة لتدرك هذه الهشاشة؟.

هل توصلت إلى الحقيقة التي انتظرتها طويلاً بعد أن نقبت في دفاتر النفري الصفراء وهذيانات مالدورور، دون جدوى؟.. إذن ما بالك؟.. هي ليست سوى بوابة وحيدة لا تفضي إلى شيء.. تنسحق على عتباتها الأحلام والأوهام.. ويذوب فيها الصالح والطالح في قارورة معتمة لاسبيل إلى

إفراغها. إذن مابالك مدحوراً ومتشبعاً بالهمّ؟ هي لحظة وتنفتح تلك البوابة.. لحظة ويغمرك الضوء الذي لايُرى والعتمة الساطعة.... أعلم أن حنيناً يعصف بك.. وأن بك رغبة في صراخ يشق الصدر ويمزق الضلوع.. فما بالك؟ .. لم كل هذا الصمت؟.. هل قهرك الحزن؟.. مهلاً.. فربما تمكنت من نزيف لائق يفصد الروح من الأوردة.. وربما تمكنت من عبارة لا يخونها المعنى تنامت تحت قوس العويل.. وهل استيقظت الآن؟.. ماذا رأيت؟.. صورتها تعلق أثوابها السوداء على حبل الغسيل.. خصلاتها الشائبة مضفورة بالحنة.. موليا الفرات.. والقصيد الحزين يهدهد وجع القلب.. وما تبقى في ذاكرتها من عبر وحكمة جارحة..

وماذا رأيت؟ نفسها الطيب في الأمكنة وهسيس قدميها.. ظلها على الحائط.. عباءتها المزمومة على الكون.. خطوتها بين المطبخ وغرفة الجلوس.. خطوتها تصعد السماء من درج البيت.. وهل رأيت البريق حين يشتد الحزن في العيون؟.. هل رأيت الوميض الذي يفتت الروح؟..

كأنك لامست كفيها وأطراف ثوبها المنزلي.. وكأنك عدت متعلقاً بأطراف عباءتها متذرعاً بالدموع . آه ..

حلمت بأنها ملفوفة بالكفن ومتكورة بين يديك، وكنت تضمها وتغمرها بروحك، وتنادي.. تنادي عليها دون جدوى.. كنت تبكي على كل شيء.. على رحيلها هكذا .. على الأيام التي لم تعشها.. على مراراتها وأفراحها الصغيرة.. على فراشها

الذي خبأته لك، وعلى هدايا الحج والعمرة الأخيرة التي لم يمهلها العمر للقيام بها.. على ابتهالاتها وأدعيتها.. على علبة العسل التي لم ينس محمود إحضارها يوماً.. على نَفَسها في الدنيا.. وعلى رغبتها بولد لك.. على خفة الروح والهمة العالية وعلى المعطف الذي خبأته لبردها القادم.

على استيقاظها الباكر ونومها القلق.. وعلى حنينك للحظة واحدة تريح فيها رأسك على صدرها.

حين وصلت إلى الميادين كانت الدنيا قد خلعت زينتها الزائفة، وأسفرت عن وجهها الحقيقي.. وكان المساء قد هبط والتجار عادوا إلى دفاتر حساباتهم والعشاق إلى دفاتر قلوبهم.. وكان باعة العربات يجرون بضاعتهم، والسوق غاصاً بالنفايات وصناديق الخضرة الفاسدة والغبار الذي يعلو الوجوه والأبنية.

وكانت أمك مسجاة بكامل موتها وكامل حياتها في قبرها المزروع أسفل حائط المقبرة تفصله عن قبري أبيك وجدتك عدة قبور.. وأقسمت عفاف بأن دمعة انزلقت من عيني أمك حين بدؤوا بتغسيلها، وبأنها رأتها تكز على شفتها السفلى.. وأن جسدها ظلّ دافئاً، ووجنتيها ظلتا مشربتين بالحمرة، إلا أن جبينها كان بارداً وشاحباً.

كانت قد ذهبت في زيارة إلى الرقة.. ولو أنها تدري بأن الموت قد أغلق خلفها الدروب لقطعت سفرها، وودعت أحبابها

كما كانت تردد في قصيدها.. لكن القلب خانها حين انهار تحت عبء الهم والأوجاع التي لا تنتهي.. والحياة خانتها حين سمحت للموت بأن يقطفها هكذا وحيدة في بيت غريب ومدينة غريبة.. ولم تستطع أن تزفر آهاتها أو تطلق أنينها فتسترت على ألمها حياءً، ودارت وجعها عن الآخرين..

إلا أنها أخبرت مريم قبل دقائق من وفاتها بصوت ارتعش عبر الهاتف دون أن تدري بأنها في نزاعها الأخير وأن روحها تتفصد من خلاياها خلية خلية..

(يمّا.. ترى صوابي باللفايف.. ومن حر الصواب القلب خايف..) وهكذا انطفأت.. هكذا، دون ذراع لقريب تستند عليه أو ولد تتعزى به.. أو ابنة تمسح العرق البارد عن جبينها.. هكذا أدارت رأسها إلى الحائط، وأغلقت عيونها على الفراغ.. وهكذا احتبست دمعتها الأخيرة إلى أن انزلقت كتذكار أخير لأولادها.. وخلاصة بليغة لحياتها .. ولعنة لاتزول على هذه الأرض..

كانت قد صمتت في الفترة الأخيرة، وماتت رغبتها في السكن عند ياسين.. وتعبت من انتظار مكالمة هاتفية من أحمد تطمئن فيها عليه، أو يطمئن عليها.. وتعبت من صرة الثياب التي تحملها ما بين بيت طه ومحمود ومريم .. تعبت من كيس الدواء المعقود على وجع لايزول، من حبوب الضغط والقرحة النازفة.. تعبت من الغليان المفاجئ الذي يتفجر في رأسها.. من آمالها البسيطة وأحلامها الصغيرة.

كان بيت الشَّعر يخيم على الحارة بأكملها.. وكان الدخول مرعباً وموحشاً.. قدماك لاتحملانك ودموعك تسيل بغزارة.. اقتربت.. كان جسدك يختلج.. وكان محمود وياسين وطه يجلسون في أول العزاء.. وكان الرجال متراصفين في أرتال متقابلة، يتبادلون أخبارهم.. نهض إخوتك وضمك محمود.. وكان الزمن قد مرّ سريعاً عليه، وبدا وكأن الأيام قهرته.. وأطفأت عينيه الضاريتين المستعرتين.. تبادلتما نظرة الحزن، وعبرت إلى طه وياسين.... أجهشت وأجهشت على أكتافهم.. وبدأت بعض الوجوه المألوفة والوجوه الغريبة تقدم عزاءها لك.. ثم لمحت مصطفى.. نهضت إليه وقبلته.. وصارت حشود المعزين تدخل وتخرج من الخيمة.. وكان كنعان وصالح وعمران يديرون القهوة المرة .

انسللت من الخيمة وطلبت من كنعان أن يأخذك إلى القبر.

منذ سنين كانت المقبرة في أطراف المدينة، وكان الموتى يرقدون في عزلتهم خارج ضجيج البشر وأصواتهم المفزعة.. وكانت المقبرة مكشوفة على كل الجهات.. وظلت المدينة تزحف باتجاهها حتى ابتلعتها، وأصبحت جزءاً مسوّراً ومهملاً في أحد أحيائها المتطرفة.

حين وصلتما.. كانت دموعك قد أغشت بصرك.. تبعت كنعان وهو يعبر بين القبور حتى توقف عند قبر لم تزل تربته رطبة، ورفع يديه لقراءة الفاتحة.. قرأت الفاتحة بدورك.. ثم طلبت منه أن يدعك وحدك قليلاً.. جلست ببطء شديد والتصقت بالقبر..

ضممته ورحت تلمس ترابه وتمسح خدك به.. ابتل الطين بالدمع وأنت تنادي عليها.. كنت تشعر بروحها تفيض على المكان.. تشعر وكأنها تنظر إليك من أعلى النظرة الحزينة ذاتها.. النظرة المعقودة على الدمع والمعجونة بالمرارة.. كنت تشعر أنها ما تزال مختنقة، وأنها لم تكن قد استعدّت للموت بعد.. وأنها كانت قلقة على أشياء ما زالت تريد الاطمئنان عليها.

عاد كنعآن بعد أن علا بكاؤك، وازداد نداؤك في سكينة هذا الليل الخادعة.. اقترب منك.. انهض.. انهض يا خالي، وادع لها بالرحمة.. لقد ارتاحت الآن فدعها تنام..

نظرت إلى كنعان سألته.. من حفر القبر هنا؟.. من اختار هذا المكان الضيق الملتصق بالسور تماماً؟.. ألم تعثروا على مكان آخر لها؟.. انظر إليها.. حتى في موتها دفنت على الهامش، كما عاشت حياتها على الهامش.. لم نعثر على مكان آخر يا خالي.. أجاب وهو يقلب يديه... نهضت.. لم تكن تقوى على المسير.. أسندك كنعان.. وخرجت.. تركتها وحيدة هناك.. وحيدة كما كانت حين التقاها الموت.

حين عدتما كان الناس قد انفضوا.. طلبت من كنعان إيصالك إلى بيت طه.. وكانت أمك رحمها الله قد انتقلت هي وأم محمود للسكن عنده بعد أن استحال بيتكم إلى خراب.. جلست على الأريكة التي اعتادت أن تنام عليها منذ سنين، وأشارت زوجة طه إلى قلائد من اللبن المجفف المعجون

بالحنطة كانت متدلية على حبل الغسيل، وأخبرتك بأن المرحومة كانت قد انتهت من إعدادها قبل يومين من وفاتها.. ثم استفاضت ببعض التفاصيل عن أيامها الأخيرة.. وكانت أم محمود مركونة هي الأخرى على أريكتها صامتة ومهدودة ومتوحدة.. فقد تركتها أمك دون إشارة، وبدت خسارتها أكبر من الجميع فقد أمضتا العمر بأكمله يدأ بيد، ودمعة بدمعة.. متقابلتين على أريكتيهما المعدنيتين تقلبان السماء صفحة صفحة والذكريات غصة غصة، وهما تحدقان آخر الليل من فناء بيتهما القديم .. فيما تطوفان بدموعهما على رفات موتاهما.

وكم نجمة حملت بريق ليلى وهي تتقافز في أركان البيت متعلقة بدفاتر المدرسة والشرائط الحمر التي تربط ضفيرتيها الطويلتين.. وكم سيل من الدموع امتزج مع الماء حين غسلت أم محمود ابنتها بنفسها، وكفنتها بيديها، وحين ودعتها في ذلك الصباح. وظلت صورة ليلى هي الصورة التي تستيقظ عليها وتنام عليها.. وظلت ليلى هي الحسرة التي تحيا عليها..

وهاهي أمك تغادرهي الأخرى بكل هذه القسوة.. آه أيها العمر.. آه أيتها الأريكة الشاغرة.. آه يا صلاة الفجر الحاضرة.. يا مائدة الإفطار وياتراتيل السحور.

دخلت إلى غرفة طه.. كانت مزينة بحوض من السمك.. وكان ثمة ثلاث لوحات من رسمك معلقة على الجدران، كنت قد أهديتها لطه قبل سفرك.. طلب منك أن تشرحها له.. ليس

الآن ياطه ليس الآن.. أجبته وأنت تحدق فيها.. أصر على ذلك.. لم تعرف بماذا تجيب، إلا أنك رحت تتحدث.. وتوقفت عيناك عنداللوحة الزرقاء الفسقية .. كان فيها نساء يحملن أطفالاً وقد غرقت ملامحهن في ضوء يصعد من داخلهن، وكان ثمة امرأة تلتفت نصف التفاتة، يقف على كتفها طير، و يتشبث بثوبها طفل.. تقف وسط اللوحة وهي تهم بالرحيل..

أتعلم يا طه؟ إني أحب هذه اللوحة.. قلت ذلك.. ثم طفرت الدموع من عينيك، وكان كنعان يحفظ عن أمك بعض أبيات من النعي، راح يرددها بصوت مجروح.

خرجت من الغرفة وطلبت من زوجة طه أن تحضر لك وسادة أمك وغطاءها الذي كانت تتدثر به.. استلقيت على أريكتها.. كانت رائحتها ما تزال عالقة في فراشها.. دفنت رأسك في الوسادة، ورحت تستنشق تلك الرائحة التي سكنت دمك منذ أن فاحت رائحة المطر في المرة الأولى التي ضمتك فيها إلى صدرها.. كانت روحها حاضرة، فلم تكن قد جمعتها إليها بعد.. ففراشها دافئ، وسجادتها ممدودة، والجارة الجديدة ما تزال تنتظر عودتها لتتسامر معها.. غفوت على صوتها.. مغموراً برائحتها.. بأنفاسها الحية.. وقد أمضيت ليلتك بين إغفاءة وصحو، وكلما فتحت عينيك كنت تحسبها نائمة إلى جوارك، أو مستلقية على الأريكة الأخرى..

في صباح اليوم التالي عدت إلى خيمة العزاء وقد ارتفع صوت القرآن من منجرة جاركم.. وتكررت قراءة الفاتحة..

وكنت تنظر من كرسيك إلى بيتكم المهجور.. نهضت باتجاهه.. دفعت الباب الحديدي، ودخلت.. كان المشهد موحشاً، فالخراب قد خيم على البيت بأكمله وتداعى كل شيء.. وقفت وسط الحوش ورحت تنظر.. التراب يغمر أرضه المصبوبة بالإسمنت المتصدع.. وكان ثمة حجارة متناثرة هنا وهناك.. تقدمت قليلاً..

هنا كانت الأرملتان تستلقيان على أريكتيهما و تحدقان في السماء وهما تنتظران عودة طه آخر الليل.. حيث تعد له أمك البيض المقلي الرائب الذي كان يحبه من يديها... وهنا في هذه الزاوية المغمورة بركام من الخشب القديم.. هبّ أحمد من فراشه ذات صباح بعد أن أحس بشيء ناعم تكور بين يديه.. كانت أفعى طويلة قد نامت في حضنه طوال الليل..

مضيت باتجاه المطبخ.. كان السقف قد هبط، وقد دخل ضوء غامر من فجوة كبيرة.. وقد رفع بعمود خشبي ضخم ثُبّت على الأرض.. ركام من الحجارة وقطع كبيرة من الجص اهترأت منها جدرانه وسقفه.. والنملية الزرقاء ما زالت مركونة في زاويتها وقد تخلعت أبوابها المغطاة بالشبك المعدني الناعم.. وثمة صحون من البلاستيك وملاعق وشظايا بلّور محشورة في النملية، أو مرمية على الطاولة الخشبية.. أوانٍ كانت تستعمل لحفظ المونة تناثرت.. وكانت الرفوف المثبتة على الجدران قد انزلقت من بعض أطرافها.. جررت نفسك.. عدت إلى فناء الدار.. رفعت رأسك إلى الأعلى.. كان الكشك قد زال

تماماً وصار درجه يفضي إلى ركام من الحجارة والذكريات، إلا أن الأصوات والأحلام مازالت حية في جدرانه المشيدة في الروح.. هناك قبّلت ندى أول مرة، وراودتك ابنة الريف عن نفسها.. وهناك خبأت علبة الألوان وكتبت حروفك الأولى في الحب.. وهناك كانت أمك تمضي لياليها متلحفة بغطاء الوحدة ومتقلبة مع دموعها على فراش الجزع.

وفي غرفة أحمد كان مكان المذياع شاغراً وقد تراخت ستائر ممزقة على الجدران المتصدعة، وفي السقف ثمة أعمدة خشبية متقصفة ومتكسرة.. إلا أن المروحة السقفية مازالت تتدلى من وسطه منذرة بالسقوط..

وكانت غرفة الضيوف مشرعة للراحلين.. في زاويتها اليمنى كانت القاصة الكبيرة السوداء ماتزال في مكانها وكانت أمك جالسة على الأرض وهي تدير قبضتها وتجر بابها المصفح على صرة من صورالعائلة وصيغة فاطمة وجواز سفر ممهور بختم الآخرة..

وكان ثمة صورة من القش لبيت تعلوه سماء مقمرة وترسو على عتباته سفينة على وشك الرحيل.. وكرسي والدك الخشبي القديم مايزال في مكانه في غرفة الجلوس، أسفل خزانة الأدوية التي أبقت على الدواء الأحمر بين العلب الفارغة، وما تزال القطعة البلاستيكية المثبته على النافذة المطلة على بيت حاج خضر تحجب صفير الريح التي باتت تعول من كل الجهات.. المساند الثقيلة مرصوفة على الجدران وقد

تمزق قماشها المخطط بالرمادي والأزرق وتناثر القش على امتداد الغرفة.. أحنيت قامتك المهدودة، ودخلت من باب الحمام القديم ، إلى غرفة الساكن التي ظلت تحمل اسم صاحبها بعد أن اشتراها والدك من آل الساكن ليوسع رقعة بيته.. دخلت.. كانت قد تعرضت أكثر من غيرها للخراب، فقد هبط سقفها، دون أن يهوي تماماً، وظل معلقاً ببعض الأوتاد الخشبية، إلا أنه كان عرضة للانهيار في أية لحظة.. ولم تطل التحديق في سقيفته التي كانت تظهر منها بعض البدنات التي جلبها مصطفى لتركيب دراجاته الهوائية المستعملة.. نظرت عبر النافذة المطلة على بستانكم الصغير وعلى المساحة الواسعة لبستان حاج خضر.. أخفضت بصرك وتذكرت الأفعى التي كادت تتسلل عبر هذه النافذة.. عدت أدراجك إلى الفناء.. وخطوت باتجاه الدرج الثاني.. صعدت عتباته، وأنت تحني قامتك قدر ماتستطيع.. كانت البسطة مكشوفة.. دفعت باب الغرفة الأولى.. كانت «درفتا الخزانة» القديمة مفتوحتين على مصراعيهما.. أغلقتهما فانعكست جدران الغرفة وسقفها المائل على المرآة.. هنا كانت ليلى تنظر إلى قامتها وهي تنمو.. هنا كانت تضفر جديلتها، وترتب زيها المدرسي.. وهنا أعادت المرآة طيفها في صورتها الأخيرة التي لم ترها من قبل..

في الغرفة الثانية تناثرت بعض الكتب التي كان ياسين يحفظها عند أمل.. نفضت عنها الغبار.. قلبتها ثم أعدت ترتيبها في مكانها.. اقتربت من النافذة.. كان الأفق كتيماً،

والسماء مغلقة، ولم يكن ثمة نفس تتنفسه الخلائق يبعث الحياة في هذا المدى الساكن.. وكان الفرات محجوباً بسحابة من الدمع.. أدرت رأسك باتجاه الحارة كانت خيمة العزاء تخيم على البيوت جميعاً، ولم تلمح إلا هلال المئذنة الذي كان يلهج في تلك الظهيرة.

وكانت أمك ما تزال تمد لك رغيف الخبز من تنورها المسجور بحطب العمر.. وتوقظك في صباحات المدرسة.. وتهدهدك على صدرها وهي تمسح جبينك بمياه يديها..

وكانت ماتزال تكره الأكل الباهت، والأيام الباهتة.. وما تزال غافلة عن وجع القلب والرمح الذي تصلب في وريدها..

وكانت ماتزال تهم إلى صلاة الفجر، وتمد يديها في الدعاء..

.. وكان أن كفت الدنيا عن الدنيا..

وكانت ماتزال تحلم بألفة في يومها الأخير.

إسماعيل الرفاعي

* ١٩٦٧م سوريا

* بكالوريوس فنون جميلة

* حاصل على العديد من الجوائز في الفنون التشكيلية والقصة القصيرة

* له « ياء - وعد على شفة مغلقة » (شعر)

